أسئلة بيانية

في

القرآن الكريم

الدكتور
فاضل صالح السامرائي

مكتبة الصحابة
الإمارات - الشارقة

أسئلة بيانية في القرآن الكريم

أسئلة بيانية

في القرآن الكريم

تأليف

الدكتور/ **فاضل صالح السامرائي**

مكتبة الصحابة
الإمارات - الشارقة
ت: ٥٦٣٣٥٧٥ - فاكس: ٥٦٣٧٥٤٤

مكتبة التابعين
القاهرة - عين شمس
ت: ٢٤٩٣٨١٤٤ - فاكس: ٢٤٩٣٤٣٢٥

مكتبة التابعين، ٢٠٠٨م.

فهرسة الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

السامرائي، فاضل صالح

اسم الكتاب :الأسئلة البيانية في القرآن الكريم

الطبعة رقم : ١- القاهرة، ٢٠٠٨م.

عدد الصفحات :٢١٦ صفحة .١٧×٢٤

رقم الإيداع : ٢٠٠٧/١٥١٦٧ .

الترقيم الدولي تدمك : ٩٧٨-٩٧٧-٦٢٣٧-١٠-٠ .

١-القرآن- أسئلة وأجوبة . ٢ -القرآن - تفسير

أ - العنوان

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

مكتبة الصحابة

مكتبة الصحابة: الإمارات - الشارقة ت: ٥٦٣٣٥٧٥ - فاكس: ٥٦٣٧٥٤٤

مكتبة التابعين: القاهرة - عين شمس ت: ٢٤٩٣٨١٤٤ - فاكس: ٢٤٩٣٤٣٢٥

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

■ المقدمة ■

الحـمد لله الذي علّم بالقلم عـلّم الإنسان مـا لم يعلم، والصلاة والسلام على السراج المنير سـيدنا محمد وعلى آله وأصـحابه أجـمعين، مـصابيح الهُـدى وأئمة التـقى، ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد:

فهذه أسـئلة ورَدَ إليَّ كثيرٌ منها على طريـق التلفاز بينما كنتُ أتحـدث في برنامج (**لمسـات بيـانيـة في نصـوص من التنزيل**) في قناة الشارقة الفضائـية في دولة الإمارات العربية المتحدة، وورد القسم الآخر عن طريق المراسلة.

وقد أجبتُ عن قسم غير قليل منها عبر البرنامج، وبقي قسم آخر لم يتسنَّ لي الإجابةُ عنه.

وفي هذا الكتاب حاولتُ الإجابةَ عن **مائة سؤال مما** سبق أن أجبتُ عنه، أو لم يتسنَّ لي ذلك.

وقد رتبتُ موضوعـات الأسئلة على حسب تسلسلها في المصحف الشريف في الغـالب، ولم يختلف هذا المنهج إلا

نادرًا، وذلك فيما أراه أنه هو الأنسب، كأن يكون بين الموضوعين ارتباطٌ ما وإن كانا متباعدين في المصحف، وذلك **كالسؤال في آية النور من سورة النور عن سبب إخبار ربنا عن نفسه بأنه نور السموات والأرض ولم يخبر عن نفسه أنه ضياء مع أن الضياء أقوى من النور**، والسؤال في آية من سورة الأنبياء عن سبب الإخبار عن التوراة أنها ضياء وفي مواضع أخرى أنها نور، فرأيت من المناسب أن أضعها بجانب بعض.

أما ما لم تكن بينهما علاقة من نوع ما فرتبته بحسب ما ورد في المصحف وهو الأعم الأغلب.

وأرجو من القارئ العزيز أن يعذرني إذا كنت عنده غير مصيب، وألا يبخل عليَّ بدعوة يسألُ اللهَ فيها أن يعطيني أجر أحد المجتهدين، وأن يبصِّرني بالصواب.

أسأل الله سبحانه أن يُلهمنا الرشد ويمنَّ علينا بالسداد في القول والعمل إنه أكرم مسؤول وأعظم مسؤول.

فاضل السامرائي

أسئلة بيانية

1 - قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (2) وقال فـي سورة لقـمان: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ② هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ (2، 3).

سؤال: *لماذا زاد الرحمة على الهدى في آية لقمان؟*

الجواب: إن آية البقرة في المتقين، والمتقي هو الذي يحفظ نفسه.

وأما آية لقمان فـفي المحسنين، والمحسن هو الذي يُحسِن إلى نفسه وإلى غيره، قال تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ (القصص: 77).

وقال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (النساء: 36).

وقال: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ﴾ (الإسراء: 7).

جاء في (المفردات) للراغب: «الإحسان على وجهين:

أحدهما: الإنعام على الغير.

يقال: أحْسِن إلى فلان.

والثاني: إحسـان في فعله، وذلك إذا علـم علمًا حسنًا أو عمل عـملاً حسنًا»(1).

فلما ذكـر في آية لقمـان أنهم محسنون زاد لهم الرحمـة على الهدى،

(1) المفردات (حسن).

وذلك أنهم زادوا في الوصف على المتقين بأن أحسنوا إلى غيرهم وإلى أنفسهم فزاد الله لهم في الجزاء.

ثم إن الإحسان إلى الآخرين إنما هو من الرحمة فزاد الله لهم الرحمة لما رحموا الآخرين.

ولم تقتصر هذه الزيادة لهم في الدنيا بل زاد الله لهم الجزاء في الآخرة أيضًا، قال تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ (يونس: ٢٦).

فكما زادوا في الدنيا من الخير زاد الله لهم فيه في الدنيا والآخرة، والجزاء من جنس العمل.

۞ ۞ ۞

٢ - قال في سورة البقرة: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (٢٣، ٢٤).

وقال في سورة يونس: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ (٣٨، ٣٩).

وقال في سورة هود: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (١٣، ١٤).

سؤال:

أ - لماذا قال في البقرة: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ بذكر ﴿مِن﴾ مع المثل ولم يذكرها في يونس ولا في هود؟

ب - لماذا قال في البقرة: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، وقال في يونس وهود: ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾؟

ج - لماذا شدد التحذير في البقرة فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾. ولم يقل مثل ذلك في يونس ولا في هود؟

د - ولماذا قطع بعدم الفعل بعد الشرط في البقرة، فقال: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾؟

الجواب:

أ - إن معنى: (ائتني بشيء من مثله) يختلف عن قولك: (ائتني بشيء مثله)، فإن قولك: (ائتني بشيء من مثله) يعني افتراض أن له مثْلاً فتقول: ائتني بشيء من هذا المثل.

يقال: إن لهذا الشيء أمثالاً.

فتقول: ائتني بشيء من مثله أي من هذه الأمثال.

أما قولك: (ائتني بشيء مثله) فإنك لا تفترض أن له مثلاً فقد يكون أن له مثلاً أو لا يكون فاستحدِثْ أنت مثله كأن تقول لصاحبك: ائتني بشعر مثل هذا أي بشعر مماثل له سواء كان مستحدثًا أم موجودًا.

وبعد هذه المقدمة في التفريق بين معنيي (من مثله) و(مثله) نقول:

ب - قوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ أعم من قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ في يونس وهود لأن مظنة الافتراء واحد من أمور الريبة. فالريبة قد تكون من مظنة الافتراء أو غيره، فإنهم قالوا: ساحر أو مجنون أو يعلّمه بشر وما إلى ذلك.

ج - قوله في البقرة: ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾ يحتمل أن يكون من مثل القرآن أو من مثل الرسول أي من شخص أمي لم يتعلم.

وهو أعم مما في الآيتين في يونس وهود فإنهما نص في أن المطلوب أن يأتوا بمثل القرآن .

فناسب العموم العموم ، وإن كان المعنى الأول هو الأظهر .

د - حذف مفعولي ﴿تَفْعَلُوا﴾ و﴿لَن تَفْعَلُوا﴾ مجانسة للإطلاق وإن كان المقصود معلومًا .

هـ - قال في يونس وهود : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ فقال : ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ أو : ﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ أي افتروا أنتم كما افترى .

و - لا يحسن بعد قوله : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ أن يقال : (فائتوا بسورة من مثله مفتراة) من جهتين :

الأولى : أنهم لم يقولوا : (افتراه) كما في آيتي يونس وهود .

والجهة الأخرى : أنه لا يحسن بعد قوله : ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾ أن يقول : (مفتراة) لأنه افترض أن له مثلاً فهو إذن ليس مفترى .

ز - وعلى هذا لا يحسن أن يقال : (أم يقولون افتراه فائتوا بسورة من مثله) لأنه افترض أن له مثلاً فهو إذن ليس بمفترى .

ح - لا يحسن بعد قوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ في يونس وهود أن يقال : ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ .

فإنهم قالوا : (افتراه) وإذن ليس له مثل . وقوله : (من مثله) يقتضي أن له مثلاً ، وإنما ينبغي أن يقال : (فائتوا بسورة مثله) ، أي : افتروا أنتم أيضًا .

ط - لم يقل في البقرة : (وادعوا مَن استطعتم من دون الله) لأنه افترض أن له مثلاً ، ومعنى ذلك أن هناك مَن استطاع أن يفعل ، إذن فليأتوا بشيء مما فعله المستطيع . فإن الغرض من دعوة من استطاعوا أن يفعلوا مثله وهو قد افترض أن له مثلاً فدعاهم إلى أن يأتوا بشيء مما فعله هؤلاء

ي – قال: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: ادعوا مَن يشهد لكم أن هذا الكلام مثل هذا.

وعلى هذا فالآية تقتـضي دعاء مَن استطاعوا ودعاء الشـهداء، فالأولون دعاهم بقوله: ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾ لأنه افترض أن هناك مَن استطاع أن يأتي بمثله.

والشهداء دعاهم للشهادة.

وهذا أوسع وأعم فناسب العموم العموم.

ك – ذكر بعد آية البـقرة أن يتقوا النار التي وقـودها الناس والحجارة لأن الذي لا يؤمن بعد إقامة الحجة عليه ولم يستعمل عقله إنما هو بمنزلة الحجارة فقرن بينهما.

ل – لما قال في أول سورة البقرة : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ ناسب أن يقول: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾.

كما ناســب أن يقطع بعدم الاستطاعة على الفـعل بقوله: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾ لأنه ذكر ابتداء أنه لا ريب فيه.

❀ ❀ ❀

٣– قـال تعالى في ســورة البقـرة (٤٩): ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

وقال في سورة الأعراف (١٤١): ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

سـؤال: *لماذا قـال في آيـة البـقـرة: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ وقـال في الأعـراف: ﴿يُقَتِّلُونَ﴾؟*

الجواب:

إنه قال في الأعراف في قصة موسى قبل هذه الآية: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ (١٢٧)، فناسب قولُ فرعـون فعلَه فقد قال: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ فقال: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ وهو المناسب فقـد فعل ما قاله وهدّد به.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن القتل أعم من الذبح، وأن القصة في الأعراف مبنية على العموم والتفـصيل في موقف فرعون من بني إسرائيل فإنه لم يَرِد في سورة البقـرة ذكرٌ لفرعون مع بني إسرائـيل ولا فتنته لهم إلا هذه الآية.

في حين أن القـصة في الأعـراف فَصَّلت في ذكـر الحوادث قبـل موسى وبعده، وذكرت فـتنة فرعون لبني إسرائيل وذكرت مجيء مـوسى إلى فرعون وتبليغـه بالدعوة وذكـرت موقف فرعـون من السحـرة وتهديد فـرعون لبني إسرائيل بالقتل والإذلال والإيـذاء حتى قالوا لموسى: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ (١٢٩).

وذكر الآيات التي حلّت بفرعـون وقومه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ (١٣٠).

وتستمر القصة في ذكر التفاصيل:

فناسب العمومُ في الأعراف العمومَ في اللفظ وهو التقتيل.

ثم إنه لم يرد في البقـرة ذكر لهارون في هذه القصـة، وأما في الأعراف فـقد ورد ذكـره في أكثـر من مـوقف منها قـول السحـرة: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ (١٢١، ١٢٢).

وورد استخلافه في قومه فقال: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾ (١٤٢).

فناسب ذلك أيضًا ذكر التقتيل، فإن ذكر موسى وهارون أعم من ذكر موسى وحده، فناسب العموم العموم.

❀ ❀ ❀

٤ – *لماذا قال في البقرة: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ (٥١)*، **وقال في الأعراف:** *﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ (١٤١)؟*

الجواب: إن السياق في الأعراف في تفصيل ما حصل في هذه المواعدة، فقد قال: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢) وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ (١٤٢ – ١٤٥).

في حين أن السياق في البقرة كان مجملاً فإنه لم يتعدّ آية واحدة أو جزءًا من آية وهي قوله: ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (٥١).

وبعدها قوله: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢) وَإِذْ آتَيْنَا

موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون ﴿٥٣﴾ وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل . . . ﴾ بل إن ما يخص المواعدة هو قوله: ﴿وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة﴾ وبعده يتعلق باتخاذ العجل كما هو ظاهر.

فناسب التفصيل التفصيل والإجمال الإجمال.

❀ ❀ ❀

٥ - قال تعالى في سورة البقرة: ﴿أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون﴾ (٨٦).

وقال فيها أيضًا: ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ﴿١٦١﴾ خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون﴾ (١٦١، ١٦٢).

وقال في آل عمران: ﴿أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ﴿٨٧﴾ خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون﴾ (٨٧، ٨٨).

سؤال: *لماذا قال في الآية السادسة والثمانين:* ﴿ولا هم ينصرون﴾، *وقال في الآيتين الأخريين:* ﴿ولا هم ينظرون﴾؟

الجواب: إن الآية الأولى إنما هي في سياق القتل والحرب والأسر، والأسارى إنما هم من أوزار الحرب، ومن في هذه الحال إنما يبتغي النصر فنفى ذلك عنهم، قال تعالى: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون ﴿٨٤﴾ ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقًا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون ﴿٨٥﴾ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا

بالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٨٤- ٨٦) فناسب ذلك ذكر النصر .

وأما الآيتان الأخريان فقد ذكرتا أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، وذكر بعد ذلك أنهم خالدون فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون .

واللعنة هي الطرد والإبعاد من رحمة الله ، والمطرود لا يُنظر إليه لأنه يُبعد .

والنظر قد يكون معناه التأخير والإمهال ، وقد يكون معناه نظر الرحمة . وكلاهما منفي .

أما الأول فلأنه مطرود فكيف يؤخر ؟ وكذلك بالنسبة إلى المعنى الآخر . فناسب كل تعبير مكانه .

❀ ❀ ❀

٦ – قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١١٤).

وقال في سورة المائدة : ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٣٣) .

وقال في سورة الحج : ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (٩) .

سؤال: *لماذا قدّم الخزي على الدنيا في آية المائدة ، فقال : ﴿لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾ وأخّره عنها في آيتي البقرة والحج ، فقال : ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾؟*

الجواب: إن الخزي المذكور في آية المائدة أظهر للعيان مما في آيتي البقرة والحج ، وهو ثابت لا يزول بخلاف ما في آيتي الحج والبقرة فإنه غير ظاهر ذلك الظهور ولا ثابت ذلك الثبات ، فقد قال تعالى في آية المائدة : ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ

تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، في حين قال في البقرة: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ .

فقد ذكر عن هؤلاء أنهم لا يدخلونها إلا خائفين أي لا يدخلون المساجد إلا خائفين، فالخوف مقارن للدخول فإذا انتفى الدخول انتفى الخوف، ثم إن الخوف أمر قلبي غير ظاهر للعيان، فالخزي المذكور في آية المائدة أظهر وأشد.

وقال في الحج: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ⑧ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (٨، ٩) ولم يذكر الخزي الذي سيلحقهم في الدنيا.

فالتقتيل والتصليب وقطع الأيدي والأرجل من خلاف والنفي من الأرض أظهر خزيًا وأشد عقوبة في الدنيا مما ذكره في الآيتين الأخريين. فناسب تقديمه في آية المائدة.

❀ ❀ ❀

٧- قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ (البقرة: ١٢٠).

سؤال: لماذا قال: ﴿حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ بإفراد الملة ولم يقل: حتى تتبع ملتيهما؟

ولماذا جاء بـ (لا) في قوله ﴿وَلا النَّصَارَىٰ﴾ ولم يقل: (وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى)؟

الجواب :

١ - الجواب عن السؤال الأول أنه لو قال : (حتى تتبع ملتيهما) لكان المعنى أن اليهود لا يرضون حتى تتبع الملتين . وأن النصارى لا يرضون حتى تتبع الملتين . وهذا غير مراد ولا يصح .

٢ - أما الجواب عن السؤال الثاني فإنه لو قال ذلك من دون (لا) أي : (ولن ترضى عنك اليهود والنصارى حتى تتبع ملتيهما) كان المعنى أنه لن يرضى عنك الجميع حتى تتبع الملتين .

ولو قال : (ولن ترضى عنك اليهود والنصارى حتى تتبع ملتهم) احتمل ذلك معنيين :

الأول: أن الجميع لا يرضون حتى تتبع ملتهم .

بمعنى أنك إذا اتبعت ملة اليهود رضيت عنك اليهود والنصارى ، وإذا اتبعت ملة النصارى رضيت عنك اليهود والنصارى ، وهذا المعنى لا يصح وهو غير مراد .

والآخر: هو احتمال ما نصت عليه الآية أي : لن ترضى عنك اليهود حتى تتبع ملتهم ، ولن ترضى عنك النصارى حتى تتبع ملتهم .

وما جاء في التعبير القرآني نص على المعنى المراد من دون احتمال آخر .

❀ ❀ ❀

٨ - قال تعالى في سورة البقرة : ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (١٢٠).

وقال في سورة الرعد : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ (٣٧).

سؤال:

١ - *لقد قال تعالى في آية البقرة:* ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾، **وقال في** *آية الرعد:* ﴿بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾.

٢ - *قال في آية البقرة:* ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

وقال في آية الرعد: ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾.

فما سبب هذا الاختلاف؟

الجواب:

١ - نقول أولاً: إن الفرق بين (الَّذِي) و(مَا) مع أن كليهما اسم موصول أن (الَّذِي) اسم موصول مختص فهو مختص بالمفرد المذكر.

وأن (مَا) اسم موصول مشترك يشترك فيه المذكر والمؤنث المفرد والمثنى والجمع.

وأنه حدد الأهواء في البقرة وعينها بقوله: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾.

ولم يحددها في الرعد بل أطلقها غير أنه قال قبل هذه الآية: ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ﴾ ولم يذكر هذا البعض.

فجاء مع ذكر الأهواء المخصصة بالاسم الموصول المختص وهو (الذي).

وجاء مع ذكر الأهواء العامة بالاسم الموصول المشترك وهو (ما).

ثم إن العلم المذكور في كل من الآيتين مرتبط بالسياق الذي ورد فيه، فالمقصود بالعلم في قوله: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ في آية البقرة العلم بدين الإسلام وهو هدى الله وهو ما يقابل ملة اليهود والنصارى وهو معلوم.

وأما العلم المذكور في آية الرعد فلم يعين ولم يحدد وهو ما يقابل ﴿وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ﴾ فلم يذكر الأحزاب ولم يذكر البعض الذي تنكره.

فجـاء في العلم المحـدد المعلوم بالاسم الموصول المخـتص وهو (الذي)، وجاء في غـير المعين بالاسم الموصـول المشترك وهو (مـا) فناسب كل تعبـير موضعه.

٢ – وأما من ناحية الفاصلة في كـل من الآيتين فإنه قال في البقرة: ﴿مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾.

وقـال في الرعـد: ﴿مَـا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ﴾، والواقي أعم من النصير، فالواقي هو الحافظ، و(وقى) معناه: (حفظ).

والواقي يكون عـاقلاً أو غـيره، فـقـد يكون من الجمـادات أو غيـرها، فالسـقف واق، والملابس واقية، قـال تعالى: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ (النحل: ٨١).

وأما النصـير فلا يكون إلا عـاقلاً قادراً، فجـعل العام وهو (الواقي) مع العام وهو عموم الأهواء، والاسم الموصول المشترك (ما)، وجعل الخاص مع الأهواء المحددة، والاسم الموصول المختص وهو (الذي).

٣ – إن النصـير ينصـر صاحـبه على الخـصم والعدو ويمكّنه منـه، وأما الواقي فإنه يحفظه منه وقد لا يتمكّن من نصره.

فوجود النصير أتم في النعـمة من وجود الواقي؛ لأنه ينصره، وإذا نصره فقد وقاه، وإذا عدم النصير فإنه لا يزال مطلوبًا لخصمه أو مهضومًا حقه حتى مع وجود مـا يحفظه أو مَن يحـفظه، فإن الحـافظ قد يخفي مَن يـحفظه في مكان لا يعلمه خصمه أو لا يصل إليه.

فجـعل نفي النصير –وهو النعـمة الأتم– مع الوزر الأعظم وهو ترك ملة

الإسلام إلى ملة اليهود أو النصارى، وجعل نفي الواقي الذي هو دون ذلك مع ما هو أقل وهو إنكار بعض الأحزاب بعض ما أنزل إليه.

وقد تقول: لقد قلتَ في النقطة السابقة إن الواقي أعم من النصير، وإن مدلول الكلام ههنا أن النصير أعم لأنه ينصر صاحبه، وإذا نصره فقد وقاه، فهو واق ونصير؟

والحق أنه لا تناقض بين القولين، فإن النصير لابد أن يكون عاقلاً قادراً والمنصور عليه لابد أن يكون عاقلاً قادراً فهو مختص بذوي العلم والقدرة ناصراً ومنصوراً ومنصوراً عليه، فلا تقول: هو نصيره من العقرب، أو من الحر أو من البرد ونحو ذلك.

وأما الواقي فهو عام فقد يكون عاقلاً أو غيره، وكذلك ما تقيه منه فقد يكون عاقلاً أو غيره.

وما تقيه قد يكون عاقلاً أو غيره، فإنك قد تقي بضاعة من التلف، وملابس من الوسخ، وماء من القذر ونحو ذلك، فلا الواقي ولا ما تقيه ولا ما تقيه منه يُشترط أن يكون عاقلاً بخلاف النصير، فإن النصرة مختصة بالعقلاء وليست كذلك الوقاية، فاتضح ما قلناه.

٤ ـ ثم إن سياق كل آية يقتضي فاصلتها التي وردت فيها من جهة أخرى، فقد قال في آية البقرة: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ فإذا اتبع ملتهم كان منهم، وأهل الملة ينصرون أتباعهم على غيرهم من أصحاب الملل الأخرى، فنفى النصير عنه.

وأما آية الرعد فلم يذكر فيها ذلك وإنما قال: ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ﴾ فإذا اتبع أهواءهم في ذلك البعض فإنه قد لا يقتضي النصرة ومحاربة أعدائه من أجل ذلك البعض الذي قد يكون هيناً، ولكن ربما يحفظونه إذا

وقع في شـدة أو أمْر مما هو دون الدخـول في مجـابهة عـدوه فنفى الواقي. فناسب كل تعبير موضعه كما هو ظاهر.

٥ – هذا ومن الطريف أن نذكـر أن كلمـة (نصيـر) وردت في البـقرة مرتين: مرة في هذه الآية ومرة في الآية السابعة بعد المائة، ولم ترد في سورة الرعد، وأن كلمة (واق) وردت في سورة الرعد مـرتين، مرة في هذه الآية، ومرة في الآية الرابعـة والثلاثين، ولم ترد في البقرة، فناسب ذلـك من جهة أخرى

٦ – هذا علاوة على تناسب فـواصل الآيات في كل سورة، فآية البـقرة تناسب فاصلتها فواصل الآيات التي وردت في سـياقها من مثل ﴿الْجَحِيمِ﴾، و﴿الْخَاسِرُونَ﴾، و﴿الْعَالَمِينَ﴾، وفاصلة آية الرعد تناسب فواصل الآيات التي وردت في سيـاقهـا من مثل: ﴿ مَتَابِ﴾ و: ﴿الْكِتَابِ﴾ و: ﴿الْحِسَابِ﴾، فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه من كل جهة، والله أعلم.

❀ ❀ ❀

٩ – قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ (١٤٣).

وقال في سورة الأنعام: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (٨٩، ٩٠).

وقال في سورة الزمر: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ (١٧، ١٨).

سؤال: *لماذا قال في آية البقرة: ﴿إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾، فحذف العائد*

على (الذين) من الفعل (هدى).

وكذلك في آية الأنعام فقد قال: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾، ولم يقل: (هداهم الله).

في حين قال في آية الزمر: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ فذكر العائد وهو الضمير (هم) المتصل بالفعل (هدى)؟

الجواب: إن هذا النوع من الحذف إنما هو من الحذف الكثير في اللغة، والفرق بين الذكر والحذف أن الذكر يفيد التوكيد كما هو معلوم، ومعنى ذلك أن قوله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ آكد من قوله: ﴿الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ لأنه صرح بذكر الضمير.

أما الفرق بين آية البقرة وآية الزمر فإن آية الزمر تقتضي التوكيد أكثر من آية البقرة وذلك أن آية البقرة إنما هي في تحويل القبلة.

وأما آية الزمر فإنها فيمن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وهؤلاء على درجة كبيرة من الهدى فإنهم لا يكتفون باتباع الحسن وإنما يتبعون الأحسن، ثم إنه جاء معهم بالفاء فقال: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ ولم يأت بـ(ثم)، والفاء تدل على الترتيب والتعقيب فإنهم بمجرد سماع القول يتبعون الأحسن.

وقال: (يتّبعون) مضارع (اتّبع) بتضعيف التاء وهو على وزن (افتعل) الدالّ على المبالغة في الاتباع ولم يقل (يتْبعون) بالتخفيف، وهذه مرتبة عظيمة أعلى من مجرد اتباع القبلة لأن اتباع القبلة إنما هو من استماع القول واتباعه فهو واحد من الأمور المطلوبة.

فهداية المذكورين في الزمر أعلى وآكد لأنها تشمل ما ذكره في آية البقرة وغيره مما يريده الله.

ولذا كان التوكيد في الزمر هو المناسب.

وأما آية الأنعام فهي في جـمع من رسل الله وأنبيائه وفيـهم أولو العزم، ولا شك أن هؤلاء أعلى من المذكورين في آية الزمر.

قد تـقول: ولماذا إذن لم يذكـر الضميـر مع فعل الهـداية مع أنهم أولى بالتوكيد من غيرهم؟

والجواب: إن ربنا ذكر كـل أحوال الهداية مع هؤلاء الذيـن ذكرهم في سياق آية الأنعام، واستعمل كل أنواع التعدية لفعل الهداية.

فقد عدى الفعل إلى المفعول مـباشرة بأسمائهم الظاهرة، فقال: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ. . .﴾ إلخ.

فعطف هؤلاء الأنبـياء والرسل على نوح الذي هو مفـعول (هدينا) أي: ومن ذريته هدينا سليمان وأيوب ويوسف . . . إلخ.

ثم عدى الفـعل إلى ضمـيرهم أيضًا فـقال: ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (٨٧)، فقال: ﴿هَدَيْنَاهُمْ﴾ فعدّى الفعل إلى ضـميرهم كما قال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ وزاد على ذلك الاجتباء.

ولم يكتف بذاك بل قال أيضًا: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ فحذف مفعول (هدى) وهو الضـمير الـعائد على الرسل فـجعل الكلام على صـورة المطلق فأطلق المعنى، إذ يحتمل هذا التعبير معنيين:

الأول: أولئك الذين هداهم الله وهو الأظهر.

والثاني: أولئك الذين هدى الله بهم.

فصار المعنى: أولئك الذين هداهم الله وهدى بهم، ولو ذكر الضمير لدل على معنى واحد، فاتسع المعنى بالحذف.

ولا شك أن هذا المعنى أوسع من ذكر الضمير وأمدح لهم.

فزاد على ما ذكره في الـزمر بالتعـدية إلى المفـعول المباشـر وهو الاسم الظاهر ، وبالحذف للدلالة على الإطلاق واتساع المعنى .

ثم إنه ذكر من الهداية ما لم يذكره في الآيتين .

فقـد ذكر الهداية العامـة ، وهو قوله : ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ . . .﴾ إلخ ، ولم يخصص الهداية بأمر معين .

ثم ذكر أنه هداهم إلى صراط مستقيم فقال : ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهذه هداية أخرى .

ثم أفاد بالحذف أنه هداهم وهدى بهم .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه أسند فعل الهداية مع رسل الله مرة إلى ضـميـر التـعظيم ، فـقـال : ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ . . .﴾ إلخ ، وقال : ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ .

وأسنده مـرة أخرى إلى اسمـه الجليل وهو اسـمه العَلَم فـقال : ﴿أُولَٰئِكَ هَدَى اللَّهُ﴾ .

في حين أسنده في الآيتين الأخـريين إلى اسمه العلـم ، فزاد الإسناد مع الرسل على ما في الآيتين الأخريين .

هذا علاوة على ما ذكره من التعظيم لأنبيائه ما لم يذكره مع الآخرين من نحو قوله : ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٨٦) .

وقوله : ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فزاد الاجتـباء على الهداية .

وقوله : ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ (٨٩) .

وقوله: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ...﴾ (٩٠).

فناسب كل تعبير موضعه.

وقد تقـول: ألا يحتمل الحـذف في آية البقـرة وهي قوله: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ ما ذكرته في قوله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ فيكون المعنى: إلا على الذين هداهم الله وهدى بهم، فيـتسع المعنى، فيكون مَن ذكـرهم في البـقرة أعلى ممن ذكـرهم في الزمـر نظيـر ما ذكـرته في آية الأنعام؟

والجواب: إن السـياق يأبى ذلك، فـإن هذه الآية في تحويل القـبلة إلى الكعبة بـعد أن كانت إلى بيت المقدس، ويكفي في ذلك أن يتـجه المسلم إلى الكعبة في صـلاته، وأن يهديه الله للرضا بذلك سواء كـان يهدي الآخرين أم لا، وسواء كان عالمًا أم لا.

فمن رضي بذلك واتجه إلى القـبلة، شملته الآية أيًّا كان فلا يصح تقدير ما ذكرت.

وقد تقول: ولِمَ لَم يحـذف الضمير في آية الزمر فـيقول: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ ليشـمل الذين هداهم الله وهدى بهم، فيكون أمـدح لهؤلاء كـما فعل في آية الأنعام؟

والجواب: إن ذكر الضـمير ههنا من رحـمة الله بنا، ولو حـذفه لكانت البشـرى لا تنال إلا مَن هداه الله وهدى به، فيكون ممن جـمع بين الأمرين، ولا تَنال مَن هداه الله ولم يَهد به، فذكر الضمير أفاد نصًّا أن البشرى تنال مَن هداه الله، وأن ذلك كافٍ لأن تناله بشرى ربنا.

وهذا من رحمته سبحانه بعباده، والحمد لله رب العالمين.

١٠- قال تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١٥٩، ١٦٠).

وقال فيهم أيضًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ (١٦١، ١٦٢).

فقال في الآية الأولى: ﴿أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ بصيغة الفعل.

وقال في الآية الثانية: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ بالصيغة الاسمية فَلِمَ ذاك؟

والجواب: إن الآية الأولى قيلت فيمن كان لا يزال في الحياة الدنيا فجاء بالفعل (يكتمون) مضارعًا، وجاء بفعل اللعنة مضارعًا أيضًا، فما داموا يكتمون ما أنزل الله تصيبهم اللعنة إلا الذين تابوا وأصلحوا وبيّنوا، فأولئك يتوب الله عليهم.

وهذا هو المناسب لفعلهم فاللعنة تستمر ما دام الكتمان مستمرًا.

وأما الآية الثانية فنزلت في الذين ماتوا على الكفر، وقد انقطعت أعمالهم وثبتوا على حالة واحدة لا يرجى لهم تبديل ولا تغيير فجاء باللعنة بالصيغة الاسمية للدلالة على الثبوت، فناسب كل تعبير مكانه الذي ورد فيه.

١١- وقال تعالى في سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (١٧٢).

وقال في سورة النحل: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (١١٤).

سؤال: *لماذا قال في آية البقرة: ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ فأمر بالشكر لله، وقال في آية النحل: ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ فأمر بشكر النعمة؟*

الجواب: إن السياق الذي وردت فيه آية البقرة إنما هو في الكلام على الله، والسياق الذي جاءت فيه آية النحل في الكلام على النعم.

فقد قال تعالى في سياق آية البقرة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ (١٦٥).

وقال قبل الآية: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ (١٧١).

فالكلام كما ترى على الله وعلى ما يدعوه الكفار من الآلهة، فناسب الأمر بشكر الله.

وأما آية النحل فهي في سياق النعم، فقد قال قبل الآية: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (١١٢).

فذكر القرية التي كفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف فناسب الأمر بشكر النعمة لئلا يصيبهم ما أصاب مَن قبلهم.

هذا إضافة إلى أن كلمة (**النعمة**) وردت في سورة النحل أكثر مما وردت في سورة البقرة، فقد وردت في سورة البقرة ست مرات، ووردت في النحل تسع مرات، فناسب كل تعبير مكانه من جهة أخرى.

١٢- قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (٢٣٣).

سؤال:

١ - *لماذا قال: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ﴾ ولم يقل: (وعلى الوالد)؟*

٢ - *ولماذا قال: ﴿وَالْوَالِدَاتُ﴾ بالجمع وقال: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ﴾ بالإفراد؟*

٣ - *ولماذا قال: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ﴾ ولم يقل: (وعلى الوالدات أن يرضعن) كما قال في الوالد؟*

الجواب:

١ - بالنسبة إلى السؤال الأول فإنه قال: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ﴾ دون الوالد "للدلالة على أن الأولاد للآباء لا للأمهات ولهذا يُنسبون إليهم دونهن كأنهن إنما ولدن لهم فقط"[١].

٢ - وأما بالنسبة إلى السؤال الثاني فإنه عبر بـ(الْوَالِدَاتُ) على صيغة الجمع دون المولود له للكثرة النسبية، فإن الوالدات أكثر من الآباء لأن الأب قد تكون له أكثر من زوجة وكلهن يلدن والوالد واحد.

٣ - وأما بالنسبة إلى السؤال الثالث، فإنه قال: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ﴾ ولم يقل: (**وعلى الوالدات أن يرضعن**) لأن الزوج مكلف بالرزق والكسوة للزوجات، أما الزوجة فلا يجب عليها أن ترضع أولادها وهي غير مكلفة بذلك، بل لها أن تمتنع عن إرضاع ولدها فيبحث له والده عن مُرضعة كما قال تعالى: ﴿**وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى**﴾ (الطلاق: ٦).

ولهذا لم يقل: (**وعلى الوالدات أن يرضعن**) كما لم يقل: (**والوالدات ليرضعن**) بلام الأمر وإنما قال: ﴿**وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ**﴾.

---

(١) فتح القدير (١/ ٢٤٥).

١٣ - قال تعـالى : ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٣٨، ٢٣٩).

سؤال: *لماذا وسّط ربنا هذه الآية بين أحداث الطلاق والوفاة، فإن قبلها: ﴿لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦) وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ (٢٣٦، ٢٣٧).*

وبعدها: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا ...﴾ (٢٤٠)؟

الجواب:

١ - إن المشكلات بين الزوجين قد تؤدي إلى أن يحيف أحدهما على الآخر، وينتصر لنفسه فيظلم الآخر.

وإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر كما قال ربنا[1] فأمرهم بذلك ليرتدعوا ولئلا يبغي بعضهم على بعض.

٢ - ثم إنه أمرهم بالمحافظة على الصلاة لئلا تشغلهم المشكلات العائلية عنها فيتركوها أو يتهاونوا في أدائها.

وقد أمرهم بالمحافظة عليها في الوقت الذي هو أشد من ذلك، وذلك عند الخوف فقال: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا﴾ فكيف فيما هو دون ذلك؟

وهذا يدل على عِظم هذه الفريضة وأنه ينبغي ألا يشغلهم عنها شاغل مهما عظم.

---

(١) العنكبوت الآية (٤٥).

١٤ - قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾ (٢٤٩).

سؤال: *لماذا قال: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ ولم يقل: (ومن لم يشربه) مع أن الكلام على الماء؟*

الجواب: يقال: (طعم) إذا أكل أو ذاق، والطعم الذوق وهو يكون في الطعام والشراب.

يقال: طعمه مر أو حلو أو غير ذلك، ويكون ذلك في كل شيء مما يؤكل أو يُشرب(١).

ثم إن «الماء قد يُطعم إذا كان مع شيء يمضغ.

ولو قال: (ومن لم يشربه) لكان يقتضي أن يجوز تناوله إذا كان في طعام.

فلما قال: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ تبين أنه لا يجوز تناوله على كل حال إلا قدر المستثنى وهو الغرفة باليد»(٢).

❀ ❀ ❀

١٥ - قال تعالى في آل عمران على لسان زكريا عليه السلام حين بشرته الملائكة بيحيى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (٤٠).

وقال على لسان مريم حين بشرتها الملائكة بالمسيح: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ

(١) انظر لسان العرب (طعم).

(٢) المفردات (طعم).

لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (آل عمران: ٤٧).

سؤال:

١ - *لماذا قال زكريا:* ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾.

وقالت مريم: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾.

فذكر زكريا الغلام، وذكرت مريم الولد؟

٢ - *لماذا قال الله مخاطبًا زكريا:* ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾.

وقال مخاطبًا مريم: ﴿كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾.

فاستعمل (الفعل) مع زكريا، و(الخلق) مع مريم؟

الجواب:

١ - أما بالنسبة إلى استعمال الغلام مع زكريا فهو المناسب؛ لأن الله بشره بيحيى، قال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ (٣٩). ويحيى غلام.

أما بالنسبة إلى استعمال الولد مع مريم فهو المناسب أيضًا ذلك أن الله بشرها بكلمة منه اسمه المسيح، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ (٤٥)، والكلمة أعم من الغلام فهي تصح لكل ما أراد الله أن يكون، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (يس: ٨٢)، والولد أعمّ من الغلام، فالولد يُقال للذكر والأنثى، والمفرد والجمع، قال تعالى: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ (الكهف: ٣٩).

فلما بشرها بالكلمة وهي عامة سألت بما هو أعم من الغلام وهو الولد، فناسب العموم العموم والخصوص الخصوص.

ألا ترى في سورة مريم حين بشرها رسول ربها بالغلام قائلاً: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ (مريم: ١٩).

قالت: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ (مريم: ٢٠)، فناسب كل تعبير مكانه.

٢ - وأما قوله مخاطبًا زكريا: ﴿كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾، وقوله مخاطبًا مريم: ﴿كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ فهو المناسب أيضًا.

ذلك أن الفعل أيسر من الخلق، فالفعل عام، ألا ترى أنه قد يقول لك قائل: لِمَ فعلت كذا؟ ولم فعلت كذا؟ فتقول: أنا أفعل ما أشاء.

ولا يصح أن تقول: (أنا أخلق ما أشاء) فإنك لا تستطيع ذلك.

هذا وإن إيجاد الذرية من أبوين مهما كان شأنهما أيسر من إيجادها من أم بلا أب.

فناسب ذكر الفعل الذي هو أيسر من الخلق مع زكريا.

وناسب ذكر الخلق مع مريم التي لم يمسسها بشر.

❀ ❀ ❀

١٦ - قال تعالى في آل عمران: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (٥٦، ٥٧).

سؤال: *لماذا قال في الآية الأولى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ﴾ بإسناد التعذيب إلى ضمير المتكلم، وقال في الآية الثانية: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ بإسناد توفية الأجور إلى الغائب ولم يقل: (فأوفيهم أجورهم) فيكون الكلام على نسق واحد؟*

الجواب: إن الآية الأولى في سياق كلام الله سبحانه عن نفسه قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ (٥٥، ٥٦).

فناسب إسناد التعذيب إلى نفسه جريًا مع سياق الحديث عن النفس.

وأما الآية الثانية فهي في مقام الالتفات إلى الغائب وذلك ليكون مدخلاً إلى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ فإنه لو لم يلتفت لقال: (وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فأوفيهم أجورهم وأنا لا أحب الظالمين).

ولم يرد فعل الحب من الله في القرآن إثباتًا أو نفيًا مسندًا إلى ضمير المتكلم أي إن الله سبحانه وتعالى لم يقل في جميع القرآن مخبراً عن نفسه بنحو: (وأنا لا أحب الظالمين أو المعتدين) أو: (وأنا أحب الصابرين أو المحسنين) بل يسند ذلك إلى لفظ الجلالة في الأغلب أو إلى ضميره كأن يقول: (إنه لا يحب المسرفين) أو: (إنه لا يحب المعتدين).

فالمناسب هو الالتفات وليس الاستمرار بالحديث عن النفس.

۞ ۞ ۞

١٧- قال تعالى في آل عمران: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٦٤).

وقال في سورة هود: ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ﴾ (٥٤، ٥٥).

سؤال: *لماذا قال في آية آل عمران: ﴿اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾* **فجاء بالباء**

مع (أنا) ولم يذكرها في قوله: ﴿وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ﴾ فلم يقل: (بأني بريء) مع أن الفعل فيهما واحد وهو قوله: (اشهدوا)؟

الجواب: إن الباء مُقدرة في قوله تعالى: ﴿وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ﴾ والمصدر المؤول منصوب على نزع الخافض لأن (شهد) بهذا المعنى يتعدى بالباء وذلك نحو قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ (الزخرف: ٨٦)، وقوله: ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا﴾ (يوسف: ٨١).

ومعلوم أن الذكر أقوى وآكد من الحذف فقوله: ﴿اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أقوى وآكد من قوله: ﴿وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

وسياق كل من الآيتين يوضح ذلك.

قال تعالى في آل عمران: ﴿قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٦٤).

وقال في سورة هود: ﴿إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ﴾ (٥٤، ٥٥).

ومن النظر في كل من الموضعين يتضح أن ما ذكره رسول الله في آل عمران أكثر مما قاله نبي الله هود في سورة هود.

فقد قال في آل عمران:

١ - ﴿أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ﴾.

٢ - ﴿وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾.

٣ - ﴿وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾.

وأما في هود فـقد ذكـر البراءة من الشـرك فقط فـقال: ﴿أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ﴾، وهو واحد مما جاء في آل عمران.

ثم لو نظرنا فـيما جـاء عن الشرك في كـل الموضعين لوجدنـا أن ما في آل عمـران أقوى وأعم فقد قال فيـها: ﴿وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ أي: أيّ شيء كان، وهذا التعبير يحتمل مـعنيين: لا نشرك به شيئًا من الشرك ولا نشرك به شيئًا من الأشياء.

في حين قال في هود: ﴿أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ﴾ فإنه ذكر البراءة مما يشرك قومه. فكان ما في آل عمران أعم وأشمل لأنه نفى كل أنواع الشرك ويدخل فيه ما ذكره في هود.

فكان ما في آل عمـران أقوى وآكد وأعم فناسب ذكر الباء فـيه، ولما كان ما في هود جزءًا مما ذكر في آل عمـران ناسب الحذف، والحذف في نحو هذا قياس كما هو معلوم.

❀ ❀ ❀

١٨ - قال تعالـى في آل عمران: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (٩٧).

سؤال: *من المعلوم أن الحج عـبادة مأمـور بهـا المسلمـون وهي ركن من أركان الإسـلام، فلمـاذا قـال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ فقـال: (عَلَى النَّاسِ)، والناس فيـهم الكافر والمسلم، ولـم يقل: (على المسلمين) أو (على المؤمنين) كما قال تعالى في الصيام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ (البقرة: ١٨٣)، وكما قـال في الصلاة: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ (النساء: ١٠٣) فذكر المؤمنين؟*

الجواب:

١ - قال تعالى قبل هذه الآية : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٩٦)، فذكر أن هـذا البيت إنما وضع للناس فناسب أن يدعو الناس إلى حجه .

وقال : ﴿مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ فذكر العالمين فناسب ذلك أيضًا أن يدعو العالمين إلى حجه .

وقال : ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ فذكر العـالمين أيضًا فناسب ذلك من جهة أخرى أن يدعو العالمين إلى حجه .

٢ - إن هذه الفريضة تختلف عن بقية الفرائض من صلاة وصيام وزكاة ، فإن هذه الفرائض مأمور بها الأنبياء السابقون وأتباعهم .

فقد قال في الصيام : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ .

فذكر أن الصيام كتب علينا كما كتب على الذين من قبلنا ، فلو قال : (لله على الناس أن يصوموا) لقال أصحاب الديانات الأخـرى أو كثير منهم : نحن نصوم فنحن قائمون بما أمر الله به .

ولو قال : (ولله على الناس إقامـة الصلاة) لقال كثـير من أهل الملل من أهل الكتاب وغيرهم : نحن نقيم الصلاة ، فإن الصلاة عبادة مأمور بها الأنبياء وأتباعهم .

قال تعالى في سيدنا موسى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ (يونس: ٨٧) .

وقال على لسان سيدنا إبراهيم : ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ (إبراهيم: ٣٧) .

١٩ - قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١٠٦- ١٠٧).

سؤال: *لماذا قدّم أولاً من تبيضّ وجوههم على من تسودّ فقال :* ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ *، ثم قدّم بعده من تسودّ وجوههم على من تبيضّ ، فقال :* ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ *وقال بعده :* ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ .

وكان المظنون أن يكون التفصيل على نسق ما بدأ، فيقول أولاً : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ *ويقول بعده :* ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ *نظير قوله تعالى في سورة هود :* ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ . . . وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ (١٠٥- ١٠٨).

فإنه لما قال : ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ *فقدم الشقي كان التفصيل على نسق ذلك ، فقال :* ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا﴾ *فقدم الذين شقوا على الذين سعدوا فما الفرق؟*

الجواب: إن التقديم والتأخير في آل عمران جرى بحسب القرب والبعد ، فمَن كان قريبًا قدم القول فيه ، ومَن كان بعيدًا أخّر القول فيه .

وإيضاح ذلك أن الكلام كان على صنفين من الناس أحدهما مُخاطب والآخر غائب ، ولا شك أن المخاطب أقرب من الغائب فقدّم ما يتعلق بالمخاطب وأخّر ما يتعلق بالغائب .

وبيان ذلك أن السياق في آل عمران إنما هو في خطاب المؤمنين فقد خاطبهم بقوله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ (١٠٠)، ويستمر الكلام في خطابهم فيقول: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ... (١٠١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ... (١٠٣) وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ... (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ...﴾ (١٠١-١٠٦)، فالمؤمنون هم المُخَاطَبون وهم الذين تَبيض وجوههم.

والذين تفرّقوا واختلفوا هم الذين تسودّ وجوههم وهم في السياق غائبون، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فأخبر عنهم بضمير الغيبة؟

فقدم القول في المخاطبين كما ذكرنا فقال: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾.

وأما الكلام بعد ذلك فإن الذين اسودّت وجوههم هم المخاطبون فيه، وأما الذين ابيضت وجوههم فهم غائبون.

فقد قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

فقد خاطبهم بقوله: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾، ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

وأما الذين ابيضت وجوههم فهم هنا غائبون فقد قال فيهم: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ

ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

فأخبر عنهم بضمير الغيبة.

فقدّم القول في المُخَاطبين كمـا فعل أولاً، فجرى الكلام على نسق واحد في التقديم والتأخير.

وأما التقـديم والتأخير في سورة هود فقـد جرى على نهج واضح أيضًا، فـإن السيـاق فـيهـا في ذكر الأمم الـكافرة الذين عـصـوا رسلهم وأنزل بهم العقوبات، ثم عـقّب بعد ذلك بقوله: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ (١٠٠، ١٠١)، فالسياق في الأشـقياء من الناس فقدّم الأشقـياء فقال: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾

وأما التفصـيل فيما بعد فقد جرى على نسق مـا ذكر لأنهم كلهم غائبون فهم بمنزلـة واحدة، فقـد قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾.

وقال بعدها: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ بخلاف ما عليه السياق في آل عـمران فإن منهم مخاطبًـا ومنهم غائب، فجرى التـفصيل في هود على ما أجمل، فلما قال: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ فقدم الأشقـياء فصّل الكلام على نسق ذلك، فقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا . . . وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا﴾.
فكان كل تعبير مناسبًا في سياقه الذي ورد فيه.

❀ ❀ ❀

٢٠ – قال تعالى في آل عمران: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ (١٦٧)، وقال في سورة الفتح: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ (١١).

سؤال: ***لماذا قال في آية آل عمران ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم﴾، وقال في الفتح ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم﴾؟***

الجواب:

إن الأفواه أعمّ وأشمل من الألسنة، فإن اللسان جزء من الفم، والمناسب أنه إذا كان القول كبيرًا عظيمًا ذُكرت الأفواه، وإذا كان أقل ذُكرت الألسنة مناسبة لكل حالة.

وعلى هذا فقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم﴾ يدل على أن القول أعظم وأكبر، والأمر كذلك.

فإن السياق في آل عمران إنما هو في المتخلفين عن القتال في أُحد، فقد دُعوا إلى القتال أو الدفع عن المدينة فامتنعوا قائلين: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ﴾، قال تعالى: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٦٧، ١٦٨).

ومما قيل في معنى قوله: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ﴾ إننا لا نُحسن القتال، ولو كُنا نحسن القتال لاتبعناكم.

وأما المذكورون في سورة الفتح فهم المتخلفون عن عُمرة الحُديبية فهم لم يذهبوا إلى العُمرة مع الرسول مُعتلّين بالشُّغل، قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ

الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (١١).

ومن النظر في السياقين يتبين ما يأتي :

١ – أن الموقف في آية آل عمران إنما هو في قتال المشركين الذين جاؤوا إلى المدينة .

وأما الموقف في آية الفتح فهو في الذهاب إلى العمرة ، وليس إلى قتال ، فالموقف في أحد أشد والخطر أظهر .

٢ – أن القول في آيات آل عمران أعظم وأكبر مما في الفتح فإنهم قالوا : ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ﴾ فهم كانوا مُصرين على عدم المشاركة في القتال ، راضين بقعودهم ، ولم يكتفوا بذلك بل كانوا يخذّلون غيرهم ويُزينون لهم القعود ، فقد قال عنهم سبحانه إنهم قالوا لإخوانهم : ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ ، فهم لم يندموا بل كانوا يرون ذلك من بُعد النظر .

وأما المُخلفون الذين ذُكروا في سورة الفتح فإنهم قالوا : ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ .

فاعتذروا عن عدم الذهاب إلى العُمرة بالشغل ، وأنهم طلبوا الاستغفار من الرسول ، فهم أظهروا للرسول أنهم مُقصرون وأنهم مذنبون فطلبوا الاستغفار وأنه كان لهم عذر .

ولم يظهر الأولون ذلك بل كانوا راضين بما فعلوا مُخذلين لغيرهم غير نادمين ولا طالبين لمغفرة .

فقول أصحاب أُحد أكبر وأعظم وموقفهم أخطر وأكبر فناسب أن يُذكر فيهم ما هو أكبر وهو الأفواه ، وناسب ذكر الألسنة في آية الفتح .

٢١ – قال تعالى في سورة النساء: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ (٢٦ – ٢٨).

سؤال:

١ – لماذا رتب الآية السادسة والعشرين على هذا النحو، أي قدّم البيان ثم الهداية ثم التوبة؟

٢ – لماذا قدّم لفظ الجلالة على الفعل (يريد) في الآية السابعة والعشرين؟

٣ – لماذا عدّى فعل الإرادة باللام في الآية السادسة والعشرين، وعدّاه بنفسه في الآية التي بعدها؟

الجواب:

١ – بالنسبة إلى التقديم والتأخير في الآية الأولى فإن هذا هو الترتيب الطبيعي، فإنه قدّم البيان على هداية السنن؛ لأن البيان مقدّم على الهداية، فالهداية تكون بعد البيان، وإلا فإلى أي شيء يهديه؟

وأما التوبة فهي بعد البيان والهداية، فإنها تكون بعد التقصير في الاتباع، وارتكاب الذنوب والمعاصي.

٢ – قدّم لفظ الجلالة على الفعل (يريد) في الآية السابعة والعشرين لأكثر من سبب.

منها: أنها بمقابل ما يُريده الذين يتبعون الشهوات.

ومنها: أن هذا التقديم يُفيد الاهتمام والتوكيد والمبالغة في إرادة التوبة من الله[١].

ومن جهة أخرى أن هذا التقديم يُفيد الحصر إضافة إلى ما تقدم، فإن التوبة مُختصة بالله حصراً، فلا يتوب غيره على العبد ولا يمكنه ذلك.

قد تقول: ولِمَ كان هذا الموضع موضع تأكيد ومبالغة؟

فنقول: إن ذلك لأكثر من سبب:

منها: أن التوبة من الله أهم شيء بالنسبة إلى العبد ولا يقوم شيء مقامها، فإنه إذا لم يتب الله على العبد هلك.

ثم إن السياق يدل على ذلك، فقد كرر إرادة التوبة، فقال: ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ ثم قال: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾.

وقال إضافة إلى ذلك: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ والتوبة من الله تخفيف عن العبد.

ومما يدل على ذلك أيضًا أنه قال: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ بمقابل ما ذكره من إرادة الفجار، فقد قال: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً﴾.

وكان المظنون بمقابل ذلك أن يقول: (والله يريد أن تستقيموا) مثلاً أو أن تطيعوه، فإن الاستقامة تُقابل الميل، ولكنه لم يقل ذلك، وإنما قال: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ فذكر ما هو أخف، ولا شك أن ذكر هذه الإرادة بمقابل ما يريده الذين يتبعون الشهوات رحمة وتخفيف.

ثم ذكر أن الإنسان خُلق ضعيفًا، والضعيف به حاجة إلى التخفيف والتوبة من التخفيف.

---

(١) انظر تفسير البيضاوي (١٠٩)، روح المعاني (٥/ ١٢).

ثم إن السياق قبل هذه الآيات في ذكر التوبة، فقد قال: ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (١٦) إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ (١٦- ١٨).

فاتضح أن سياق الآيات وما قبلها إنما هو في التوبة، فاقتضى ذلك الاهتمام والمبالغة في إرادة التوبة.

واقتضى تقديم لفظ الجلالة من كل وجه.

قد تقول: لقد اتضح سبب تقديم لفظ الجلالة في قوله: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ فلِمَ لم يُقدم الذين يتبعون الشهوات فيقول: (والذين يتبعون الشهوات يريدون أن تميلوا ميلاً عظيمًا) حتى يكون التعبيران على نسق واحد؟

فنقول: إن الذين يتبعون الشهوات ليسوا وحدهم الذين يريدون للمسلمين أن يميلوا ميلاً عظيمًا، بل هناك غيرهم ممن يريد ذلك من المنافقين وأهل الكتاب والمشركين وغيرهم ممن يأكل قلبه الحسد والحقد أو لغير ذلك كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ (البقرة: ١٠٩). وقال: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ (المائدة: ٨٢). وقال: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ (المائدة: ٦٨).

وقال في المنافقين: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (٨٨) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ (النساء: ٨٨، ٨٩).

فذكر أن الذين يتبعون الشهـوات يريدون أن تميلوا ميلاً عظيمًا ولم يَقصر ذلك عليهم فلا يُناسب التقديم

٣- وأما تعـدية فعل الإرادة باللام مـرة وبنفسه مـرة أخرى فإن التـعدية باللام تحتمل أمرين:

الأول: أن تكون اللام مزيدة للتوكيد وهذا كثير في أفعال الإرادة وذلك نحـو قـولـه تعـالى: ﴿إِنَّمَـا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُـذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَـيْتِ﴾ (الأحزاب:٣٣)، وقـولـه: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْـوَاهِهِمْ﴾ (الصف: ٨)، والآخر: أن تكون اللام للتعليل[١] أي إرادته لهذا الغرض.

وكلاهما يدل على المبالغة والقوة وهو آكـد وأقوى من التعدية بنفسه[٢] فالتعبير (يريد الله ليتوب عليكم) آكد من: (يريد الله أن يتوب عليكم).

وقد ذكـر الله الأمرين فـإن قوله: ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ في الآية الأولى أي في قوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُـبَـيِّنَ لَكُمْ . . . وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ مـعطوف على إرادة اللام.

وفي الثانية مفعول به للفعل (يريد).

فتكـون إرادة الله للتوبة مطلوبة مـؤكدة على كل حـال، وهذا يدل على عظيم رحمة الله بخلقه.

ولما كانت الآية الأولى ذكرت أمورًا في غاية الأهمـية منها البيان لما يريده الله وهداية الخلق لما يريد ومنها التوبة جاء بفعل الإرادة معدى باللام.

ولما كانت الآية التي تليـها مندرجة في مطلوب الآية السـابقة وهي إرادة التوبة وليس فيها ما في الآية التي قبلها لم تحتج إلى اللام.

(١) انظر تفسير البيضاوي(١٠٩).

(٢) انظر كتابنا(معاني النحو) (٣/ ٦٧) وما بعدها

وقد تقول: ولِمَ لَم يقدم لفظ الجلالة في الآية الأولى فيقول: (الله يريد ليبين لكم)؟

فنقول: إن هذا الموطن لا يقتضي التقديم لأنه لم يذكر أن جهة أخرى تُريد غير ذلك، ولا هو موطن تعريض بجهة أخرى تريد غير هذا الأمر وإنما هو إخبار عن إرادة الله لذلك، بخلاف الآية التي تليها فإنه ذكر جهة أخرى تريد غير ما يريده الله للمؤمنين.

فلا يناسب التقديم في الآية الأولى، والله أعلم.

٢٢ – قال تعالى في سورة النساء: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ (٩٢).

وقال في سورة التوبة: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ (١٠٤).

وقال في سورة الشورى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ (٢٥).

سؤال: *لماذا جاء مع التوبة بـ (من) في آية النساء، وجاء معها بـ(عن) في آيتي التوبة والشورى؟*

الجواب: لقد ذكر (من) مع التوبة ليُبين الجهة التي تقبل التوبة، وهو (الله).

وذكر معها (عن) ليُبين طالب التوبة وهم العباد.

فقوله: ﴿تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ يعني أن التوبة قبلها الله وهو يتوب على مَن يفعل ذلك.

وقوله: ﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ يعني أنه يقبل التوبة التي تصدر عن عباده طالبين لها.

وقيل: إن معناه أنه يتجاوز عنهم ويعفو عن ذنوبهم التي تابوا منها، جاء في «روح المعاني»: «وتعدية القبول بـ(عن) لتضمنه معنى التجاوز والعفو أي: يقبل ذلك متجاوزًا عن ذنوبهم التي تابوا عنها»[1].

❀ ❀ ❀

٢٣ – قال تعالى في سورة النساء (١٦٢): ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

سؤال: *لماذا قال:* **﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ﴾ بنصب ﴿الْمُقِيمِينَ﴾ مع أنه معطوف على ﴿الرَّاسِخُونَ﴾ وهو مرفوع؟**

الجواب: إن هذا مما يسمى في علم النحو بالقطع وهو يكثر في المدح والذم والترحم، ويكون ذلك لأهمية المعطوف[2].

والقطع هنا للمدح وهو مفعول به لفعل محذوف تقديره (أمدح) أو (أخص).

وحسّن القطع أنه ذكر عبادتين ظاهرتين وهما: إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والصلاة أهم من إيتاء الزكاة لأنها فرض عين على كل مكلف سواء كان غنيًا أم فقيرًا، صحيحًا أم سقيمًا، وهي أهم ركن في الإسلام، ولا تسقط في حال من الأحوال، ولذا قطعها للدلالة على فضلها على الزكاة، أما الصفات الأخرى فهي أمور باطنة وقلبية.

---

(١) روح المعاني (١١/ ١٥).

(٢) انظر (معاني النحو) (٣/ ١٨٧) وما بعدها

ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٧٧).

فقطع الصابرين لفضلهم ، وذلك أنهم صابرون في الفقر وفي المرض وفي القتال ، والبأساء هي البؤس والفقر ، والضراء السقم والوجع ، وحين البأس أي وقت القتال وجهاد العدو(١) .

جاء في «البحر المحيط»: «انتصب (والصابرين) على المدح .

ولما كان الصبر مبدأ الفضائل -ومن وجه- جامعًا للفضائل إذ لا فضيلة إلا وللصبر فيها أثر بليغ غيّر إعرابه تنبيهًا على هذا المقصد»(٢) .

وجاء في «روح المعاني»: «﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ نصب على المدح بتقدير أخص أو أمدح .

وغيّر سبكه عمّا قبله تنبيهًا على فضيلة الصبر ومزيته على سائر الأعمال حتى كأنه ليس من جنس الأول»(٣) .

❀ ❀ ❀

٢٤ -قال تعالى في سورة النساء : ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ

---

(١) انظر روح المعاني (٢/ ٤٨)، البحر المحيط (٢/ ٧).

(٢) البحر المحيط (٢/ ٧).

(٣) روح المعاني (٢/ ٤٧).

وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ (١٦٣- ١٦٤).

سؤال: *لماذا خصّ داود بقوله : ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾؟*

والجواب: إن أهل الكتاب سألوا سيدنا محمدًا أن يُنزل عليهم كتابًا من السماء ، قال تعالى : ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ (النساء: ١٥٣).

فأجابهم رب العـزة أن محمدًا أوتي مثلما أوتي رسل الله الذين تؤمنون بهم وتُقرون بنبوتهم ، فقال : ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ ومَن ذكرهم من الأنبياء الآخرين .

وآتيناه كما آتينا داود زبورًا ، وقد نزل الكتاب على داود منجمًا[1] وكذلك نزل على محمد .

فإن مَن ذكرهم من الأنبياء الذين سبق ذكرهم ذكر داود اشتركوا في الوحي ، ولم يؤتهم كلهم كتبًا فإن قسمًا منهم لم ينزل عليهم كتبًا فاشترك معهم محمد في الوحي ، وأوتي كتابًا كما أوتي داود الذي تؤمنون به ، وأرسله كما أرسل رسلاً آخرين قصهم عليه وآخرين لم يقصصهم عليه .

وقد تقول : ولِمَ قال : ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾؟

والجواب: إن قسمًا ممن ذكرهم في صدر الأنبياء أنبياء وليسوا رسلاً مثل إسحاق ويعقوب ، فقد أوتي محمد ﷺ مثلما أوتي أنبياء الله ورسله جميعًا .

---

(١) انظر روح المعاني (ج٦/ ٢٦).

١ - فقد أوحي إليه كالنبيين.

٢ - وأوتي كما أوتي داود.

٣ - وأُرسل كما أُرسل رسل الله ممن قصهم عليه، ومَن لم يقصصهم عليه.

٤ - ذكر سبحانه أن الله كلَّم موسى تكليمًا، وهذه خصوصية لموسى عليه السلام.

وأوتي محمد ما هو أعظم من ذلك فإن موسى كلّمه الله على الطور، وأما محمد فقد عرج به إلى السموات العلا إلى سدرة المنتهى عندها جنة المأوى.

ثم إن موسى خرّ صعقًا.

وأما محمد فقد قال ربه فيه: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ (النجم: ١٧)، فأحرى بكم أن تؤمنوا به، وقد أوتي مثلما أوتي رُسل الله.

جاء في «روح المعاني» في تحقيق المماثلة بين شأنه ﷺ «وبين شؤون مَن يعترفون بنبوته من الأنبياء عليه السلام في مطلق الإيحاء ثم في إيتاء الكتاب، ثم في الإرسال، فإن قوله سبحانه: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ منتظم لمعنى (آتيناك) و(أرسلناك) فكأنه قيل: إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى فلان وفلان، وآتيناك مثلما آتينا فلانًا، وأرسلناك مثلما أرسلنا الرسل الذين قصصناهم وغيرهم، ولا تفاوت بينك وبينهم في حقيقة الإيحاء والإرسال، فما للكفرة يسألونك شيئًا لم يعطه أحد من هؤلاء الرسل عليهم الصلاة والسلام»[1].

❀ ❀ ❀

(١) روح المعاني (٦/ ٢٦).

٢٥ – قال تعالى في سورة المائدة: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾ (٢).

وقال في السورة نفسها أيضًا: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (٨).

فقال في الآية الأولى: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ . . . أَن تَعْتَدُوا﴾، والتقدير: (على أن تعتدوا) فحذف (على)، وقال في الآية الثانية: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا﴾ فذكر (على) فما السبب؟

الجواب:

إن الذكر يفيد التوكيد فذكر (على) في الآية الثانية لأنها آكد، ذلك أن الآية الأولى في حالة وقعت ومضت وهي حالة عارضة، وذلك في قوم صدوهم عن المسجد الحرام وهي في أهل مكة وذلك عام الحديبية.

أما الآية الثانية فهي نهي عن حالة مستديمة إلى يوم القيامة وهي النهي عن عدم العدل.

ثم إن الاعتداء يدخل في عدم العدل لأنه اعتداء فدخلت الآية الأولى في الثانية

فالثانية آكد وأعم وأشمل فجاء فيها بـ(على) وحذفها من الأخرى.

❀ ❀ ❀

٢٦ – قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ (المائدة: ٦).

سؤال: هل يصح في اللغة عطف الأرجل على الوجوه في الغسل مع أنه قد فصل بين المعطوف والمعطوف عليه بأجنبي عن الغسل وهو المسح بالرؤوس؟ ثم لماذا فعل ذاك؟

الجواب:

لا شك في صحة هذا العطف في اللغة، وهو كثير في القرآن وغيره، قال تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ (الروم: ١٧، ١٨).

فقد عطف: ﴿حِينَ تُظْهِرُونَ﴾ على: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ وبينهما متعاطفات، فقوله: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ معطوف على قوله: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾، و﴿الأَرْضِ﴾ معطوفة على ﴿السَّمَوَاتِ﴾.

ونحو ذلك آية الكرسي، فإن قوله: ﴿وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ معطوف على قوله في أول الآية: ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾ وبينهما متعاطفات مختلفة وهي: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾، وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾، ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ (البقرة: ١٧٧)، فعطف: ﴿أَقَامَ الصَّلاةَ﴾ على ﴿آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ أي (ومَن أقام الصلاة) على ما بينهما من متعاطفات.

وقال تعالى في سورة الجن: ﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ (١٦) فعطف هذه الآية على قوله: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ وهي الآية الأولى.

فعطف الآية السادسة عشرة على الآية الأولى.

وفي سورة الأعراف عطف قوله: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ (٨٥) على قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ (٥٩).

على ما بينهما من بُعد، وذكر قصصًا متعددة ومتعاطفات كثيرة، فإن بينهما ستًّا وعشرين آية، فلا خلاف في صحة نحو هذا.

تقول في الكلام: (ذهبت إلى السوق فاشتريت من البقال فاكهة وخضراوات وبيضًا، ومن البزاز قماشًا وقميصًا، ومن المكتبة كتابين ودفترًا ثم عُدت)، فتعطف الفعل (عدت) على (ذهبت) في أول العبارة على ما بينهما من متعاطفات متعددة مختلفة.

أما لماذا فعل ذلك في آية الوضوء، فإن الغرض إرادة الترتيب في الوضوء، فإنه يجب أن تكون أعمال الوضوء مرتبة بحسب ما ذكره القرآن الكريم.

❀ ❀ ❀

٢٧ - *لماذا قال تعالى في المائدة (٢٦): ﴿فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾، وقال في السورة نفسها في الآية ٦٨: ﴿فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾؟*

الجواب:

إن الآية الأولى قالها ربنا في قوم موسى الذين نكلوا عن قتال الجبارين، وقالوا: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٤- ٢٦).

وقوم موسى ليسوا كافرين، وإنما هم فاسقون لمخالفة أمر الله في القتال، ثم إن هذا الوصف مجانس لما وصفهم به موسى عليه السلام بقوله: ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ فقال له ربه: ﴿فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

وأما الآية الثانية فهي خطاب لرسوله محمد بخصوص أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا به، قال تعالى: ﴿قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

وهؤلاء كافرون فإنهم لم يؤمنوا برسول الله، وقد قال الله في هذه الآية: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ فذكر أنه يزيدهم ما أُنزل إليه طغيانًا وكفرًا، فقال فيهم: ﴿فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

❀ ❀ ❀

٢٨ - قال تعالى في سورة المائدة: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٢٧).

وقال في سورة الأحقاف: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ (١٦).

سؤال: *عدّى الفعل (تقبل) في آية المائدة بـ(من) فقال: ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ... إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾، وعدّى الفعل في آية الأحقاف بـ(عن) فقال: ﴿نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ﴾ فما السبب؟*

الجواب: إن تعدية الفعل (تقبل) بـ(من) تدل على الاهتمام أو العناية بالذات أو الجهة التي يتقبل منها

وتعديته بـ (عن) تدل على الاهتمام والعناية بتقبل العمل الصادر عنها، فإذا كانت العناية والاهتمام بالذات أو الجهة التي يتقبل منها عدّاه بـ(من) وذلك نحو قوله: ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ﴾، وقوله: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٧)، وقوله: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾ (آل عمران: ٣٥).

أما إذا كان محطّ العناية والاهتمام على العمل وقبوله فإنه يعدّيه بـ(عن) وذلك نحو قوله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ أي: نتقبل العمل الصادر عنهم.

وحيث عدّي الفعل (تقبل) بـ(من) لم يذكر له مفعولاً أو هو يبنيه للمجهول مما يدل على الاهتمام بالذات أو الجهة التي يتقبل منها.

فإذا عدّاه بـ(عن) ذكر العمل كما في الآية المذكورة وهي الآية الوحيدة في القرآن الكريم.

فدلّ على أن مناط الاهتمام بالعمل مع تعدية الفعل بـ(عن)، ومناط الاهتمام بالذات أو الجهة مع تعديته بـ(من)، والله أعلم.

❀ ❀ ❀

٢٩ –قال تعالى في سورة الأنعام : ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٧) .

وقال في سورة يونس : ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ (١٠٧) .

سؤال: *لماذا اختلف التعقيب في الآيتين فقال في آية الأنعام : ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ،وقال في آية يونس : ﴿فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ ؟*

الجواب: إن آية الأنعام في افتراض مسّ الخير ، فقد قال : ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ ، وأما آية يونس فهي في افتراض إرادة الخير وليس المسّ ، فقد قال : ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ ، والإرادة من غير الله قد لا تتحقق لأنه قد يحول بينها وبين وقوعها حائل ، وأما إرادته سبحانه فلا رادّ لها .

فاختلف التعقيبان بحسب ما يقتضيه المقام .

ألا ترى أنه لما اتفق الافتراضان في مس الضر اتفق الجوابان ، فقد قال في كل منهما : ﴿فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ﴾؟ ولما اختلف الافتراضان كان الجواب بحسب ما يقتضيه كل افتراض .

❀ ❀ ❀

٣٠ –قال تعالى في سورة الأنعام : ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (٥١) .

وقال في سورة الأنعام أيضًا : ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ﴾ (٧٠) .

وقال في سورة السجدة : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ③ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا

بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون﴾ (٣، ٤).

سؤال: *لماذا قال تعالى في آيتي الأنعام ﴿ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع﴾، و: ﴿ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع﴾ فنفى بـ(ليس).*

وقال في آية السجدة ﴿ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع﴾ فنفى بـ(ما)، وجاء معها بـ(من)؟

الجواب: إن النفي في آية السجدة أقوى منه في آيتي الأنعام ذلك أن آيتي الأنعام من الجمل الفعلية، فهي مبدوءة بـ(ليس). و(ليس) فعل.

وأما آية السجدة فهي جملة اسمية منفية بـ(ما)، ومعلوم أن الجمل الاسمية أقوى من الفعلية، و(ما) أقوى من (ليس) (١).

هذا علاوة على المجيء مع ذلك بـ(من) الاستغراقية التي تُفيد نفي الجنس وتُفيد التوكيد مع ذلك، فهي تُفيد نفي الولي والشفيع على سبيل الاستغراق.

وأما سبب ذلك – والله أعلم- فإن الكلام في آيتي الأنعام على أصناف خاصة من الناس.

فإن الإنذار في الآية الأولى للذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم على هذه الحالة، وهناك غيرهم كثير من غير هذا الصنف، فإن هناك مَن لا يؤمن أصلاً باليوم الآخر، ولا يخاف الحشر، وهناك أصناف آخرون غير هؤلاء.

وأما الآية الثانية فإن التذكير فيها لنفي مخافة أن تؤخذ بجريرتها وتُسلم بذنبها وتفضح به، وذكر من حالة هذا الصنف بقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا

(١) انظر معاني النحو (١/ ٢٧٢) وما بعدها

بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٧٠).

وأما آية السجدة فالخطاب لعموم مَن يصح خطابه من الثقلين لا يخص صنفًا دون صنف ولا واحدًا دون آخر، وإنما هو خطاب عام يعم الجميع فقد قال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ﴾ فلم يذكر صفة معينة ولا صنفًا خاصًا.

فلما عمّ ذلك الجميع احتاج إلى التوكيد ولا شك، فإنه جارٍ في العادة أن يكون للشخص وليٌّ واحد، أو أن يكون لمجموعة من الناس ولي واحد، أما ألاّ يكون للخلق جميعًا إلا ولي واحد وليس لأحد منهم ولي غيره فهذا يحتاج إلى التوكيد فأكده بالجملة الاسمية و(من) الاستغراقية.

هذا أمر.

والأمر الآخر أنه لم يذكر في آيتي الأنعام شيئًا من صفات الله وإنما ذكر اسمه العلم في آية فقال: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ﴾، وأعاد الضمير على الرب في الآية الأخرى، فقال: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ﴾.

وأما في آية السجدة فذكر له صفات عظيمة، فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ (٤).

وقال: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (٥).

وقال: ﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٦ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ (٦، ٧).

ويستمر في ذكر صفاته العظيمة وقدرته التي لا تُحد.

فناسب ذلك أن يؤكد أنه ليس للخلق من دونه ولي ولا من دون رضاه شفيع، وإنما هو الولي الأوحد للخلق أجمعين.

قد تقول: ولكنه ذكر من صفات المعصية والضلال في آيتي الأنعام ما لم يذكره في آية السجدة، أفلا يقتضي ذلك توكيد نفي الولي والشفيع فيهما؟

والجواب: أن ليس الأمر كما توهمت بل لقد ذكر في سياق آية السجدة من المعصية والكفر ما لم يذكر في آيتي الأنعام.

فقد قال في آية الأنعام (٥١): ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾.

فلم يذكر لهم معصية وإنما قال عنهم إنهم يخافون أن يحشروا إلى ربهم في هذه الحال، ومعنى ذلك أنهم مقرّون بالحشر معترفون به يخافون ربهم ويخافون أن يحشروا، وليس لهم من دون الله ولي ولا شفيع، وهذا ليس معصية ولا ذنبًا.

وأما آية الأنعام الأخرى فإنه قال فيها: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ أي: اتركهم، وذكّر به: أي بالقرآن مخافة أن تؤخذ نفس بجريرتها وتجزى بكسبها، ولم يذكر لها ذنبًا، وأما الذين اتخذوا دينهم لعبًا ولهوًا فأمر بتركهم.

وأما آية السجدة فإنها في سياق من يَنسب إلى رسول الله الكذب وافتراء القرآن وفيمن ينكر الحشر والمعاد، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ فنسبوا إليه ﷺ افتراء القرآن أي كذبه على الله، وقال عنهم: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ (١٠).

فهم كذبوا الرسول وأنكروا الحشـر والمعاد ، ولا شك أن هذا أكبر مما ذُكر في آيتي الأنعـام ، فاقتـضى السيـاق توكيـد نفي الولي والشفـيع من دون الله وطاعته ورضاه من هذه الجهة أيضًا ، فـاقتضى توكيد ذلك في آية السجدة من كل وجه ، و الله أعلم .

۞ ۞ ۞

٣١ –قال تعـالى في سورة الأنـعام : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٨٣-٨٦) .

سؤال: *ما سرّ ترتيب الأنبياء في هذه الآيات ؟*

الجواب: ربنا أعلم بسـر ترتيب كلامـه ولكن هناك أكثـر من ظاهرة في ترتيب هؤلاء الأنبيـاء سلام الله عليـهم ، فنحن نلاحظ نسقًا منـتظمًا في هذا الترتيب وهو أنه يذكر ثلاثة أنبياء ثم يعود إلى مَن هو أقدم من المذكورين .

ثم يذكر ثلاثة أنـبياء آخـرين ويعود بعدهم إلى مَـن هو أقدم ، وهذا هو الأمر الظاهر في هذا الترتيب .

١ – فقد ذكـر إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ثم ذكـر بعدهم مَن هو أقدم منهم جميعًا ، وهو نوح عليه السلام .

٢ – ثم ذكر بعـد ذلك : داود وسليمان وأيوب ، ثم ذكـر بعدهم مَن هم أقدم منهم وهم : يوسف وموسى وهارون .

٣ - ثم ذكر بعد ذلك : زكريا ويحيى وعيسى ، ثم ذكر بعدهم : إلياس وهو أقدم منهم .

٤ - ثم ذكر إسماعيل واليسع ويونس ، ثم ذكر بعدهم : لوطًا وهو أقدم منهم .

هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى أن هناك علاقة ما تربط بين المذكورين إضافة إلى علاقة النبوة التي تجمع بين الجميع ، وإيضاح ذلك :

١ - أن إبراهيم وإسحاق ويعقوب تربط بينهم علاقة البنوة فإسحاق ابن إبراهيم ، ويعقوب ابن إسحاق .

٢ - وأن داود وسليمان تربط بينهما علاقة البنوة والملك ، فسليمان ابن داود وكانا ملكين .

٣ - وأن سليمان وأيوب كلاهما قال الله تعالى فيه : ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (ص: ٣٠، ٤٤)، أولهما الغني الشاكر وهو سليمان ، وثانيهما : الفقير الصابر ، والشكر والصبر جماع الإيمان كما قيل . فإن الإيمان نصفه صبر ونصفه شكر ، وقد جمع بينهما في سورة ص .

٤ - أيوب ويوسف : كلاهما أنعم عليه بعد الابتلاء وأصابه الرخاء بعد الشدة .

٥ - يوسف وموسى : كلاهما رسول ولم يذكر القرآن بينهما اسم رسول فيما أعلم . وقد قال موسى : ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ (غافر: ٣٤).

٦ - موسى وهارون يجمع بينهما الأخوة والرسالة .

٧ - زكريا ويحيى: يجمع بينهما البنوة فيحيى ابن زكريا.

٨ - يحيى وعيسى: كلاهما مستغرب الولادة.

الأول: من أبوين لا ينجبان أحدهما شيخ فان، والآخر أم عاقر، وعيسى من أم بلا أب.

٩ - أن عيسى خاتمة النسب من ولد إسحاق إذ ليس له أب، والمذكورون بعد عيسى سلسلة أخرى ومن ذرية أخرى ليست من ذرية إسحاق. فكان عيسى الحد الفاصل بين السلسلتين.

١٠ - فقد ذكر أن إلياس من ولد إسماعيل وليس من ذرية إسحاق.

١١ - وإسماعيل أخو إسحاق وهو ابن إبراهيم من هاجر، عليهم السلام.

١٢ - اليسع صاحب إلياس وحيث ورد ذكر اليسع في القرآن يسبقه بذكر إسماعيل.

١٣ - يونس ولوط كلاهما ليس من ذرية إبراهيم، وكلاهما خرج يحمل الدعوة إلى الله.

فإن يونس خرج مُغاضبًا قومه، وظن أن لن يضيق الله عليه فخرج يحمل همّ الدعوة إلى الله.

وإن لوطًا خرج مهاجرًا إلى ربه كما قال تعالى فيه: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ (العنكبوت: ٢٦).

وجمع بينهما في سورة الصافات.

فبدأت زمر الأنبياء بالذاهب إلى ربه وهو سيدنا إبراهيم، ﴿وَقَالَ إِنِّي

ذاهبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (الصافات: ٩٩). وخُتِمت بالمهاجر إلى ربه سيدنا لوط.

قد تقول: لِمَ بدأ بسيدنا إبراهيم ولم يبدأ بسيدنا نوح عليه السلام؟

والجواب: إن الكلام والسياق في سيدنا إبراهيم فإن الآيات تبدأ بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً... وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ... فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا .... فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي... فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ ...﴾.

ويستمر الكلام على سيدنا إبراهيم من الآية ٧٤ إلى الآية ٨٣ فكان ذلك هو المناسب.

وقد أُثير سؤال آخر في هذا السياق، وهو أنه قال تعالى: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾ فَلِمَ لَم يقل: (وأزواجهم)؟

والجواب: إن السياق في ذكر الأنبياء، والنساء لسن كذلك فلا يناسب ذكر الأزواج.

❀ ❀ ❀

٣٢- في الآيات السابقة وهي قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: ٨٣- ٨٦).

سؤال: *لماذا ختم الآيات بما ختم فقال في مجموعة من الأنبياء: ﴿وَكَذَلِكَ*

نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾، وقال في قسم آخر: ﴿وَكُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾، وقال في الآخرين: ﴿وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾؟

الجواب: إن خاتمة كل آية مناسبة لمن ذكر فيها من الأنبياء، وإن كانت كل فاصلة تصح على جميع الأنبياء.

فقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ذكر فيه إسحاق ويعقوب، وقد أنعم الله عليهما بالهداية، فقال: ﴿وَكُلاًّ هَدَيْنَا﴾ ويعقوب أنعم الله عليه بلقب (إسرائيل) وقيل معناه في لسانهم صفوة الله، وقيل: عبد الله، وقيل: رجل الله، وقيل غير ذلك[1].

وأنعم عليه بعد فقد ولده بأنه أعاد إليه ولده وجعله عزيز مصر ورفعه ابنه على العرش، وجعل أولاده أنبياء وهم الأسباط، وذريته من بعده ينتسبون إليه اعتزازًا به فيقال: (بنو إسرائيل).

وداود صار قائدًا وصار ملكًا، وسليمان ملك وهب الله له مُلكًا لا ينبغي لأحد من بعده، وأيوب أغناه الله بعد الابتلاء وآتاه أهله ومثلهم معهم وآتاه مالاً وفيرًا، وموسى وهارون أكرمهما الله بالرسالة والآيات العظيمة، والنصر على فرعون الذي أغرقه الله وجنوده في اليم في آية عظيمة من آيات الله.

فكلاً جزاه بإحسانه، فناسب ذلك قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

وأما قوله: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾، فإن زكريا قتل بعد قتل ولده، ويحيى قتل، وعيسى أُريد قتله فرفعه الله إليه، فلا يناسب ذلك أن يقول فيهم: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ لأن معناه أنه يجازي

---

(١) انظر الكشاف (١/ ٢١٢)، البحر المحيط (١/ ١٧٣)، روح المعاني (١/ ٢٤١).

المحسنين بالقتل والخوف ومحاولة القتل.

وأما إسماعيل واليسع ويونس ولوط فقد أكرمهم الله بالرسالة والتفضيل على عالمي زمانهم، ولم يعطهم ما أعطى الأولين من الملك ونحوه.

ولم يصبهم ما أصاب مَن ذكرهم بعد الأولين من القتل والخوف، فذكر أنه فضلهم على العالمين، وهو أعلى وسام.

❀ ❀ ❀

٣٣ – قال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (الأنعام: ٩٠).

سؤال: *ما هذه الهاء في (اقتده)، وما دلالتها؟*

الجواب: هذه الهاء اسمها هاء السكت، ويؤتى بها عند الوقف، وفي مثل هذه المواضع يكون الإتيان بها جائزًا، وقد جاءت هنا لغرض لطيف، فقد جاءت بعد ذكر عدد من الأنبياء منهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب ونوح وداود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى وغيرهم.

ثم قال بعد ذلك: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (٩٠).

أي: اقتدِ بهدى هؤلاء حصرًا وقف عنده ولا تطلب هدى في غير هداهم.

وقدم الجار والمجرور للدلالة على القصر، وهو من لطيف البيان.

❀ ❀ ❀

٣٤ – قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا﴾ (١٣٠).

وقال في سورة الزمر: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ﴾ (٧٢).

سؤال: لماذا قال في الأنعام: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ وقال في الزمر: ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾؟

الجواب: إن سورة الأنعام جرى فيها ذكر قصص الماضين في مواضع كثيرة منها، وفيها من التحذير ومواضع العبرة ما يكفي للاتعاظ.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ (٦).

وقوله: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (١٠، ١١).

وقال: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٣٤).

أي: من أخبارهم وقصصهم.

وقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ

ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٢- ٤٥).

ثم ذكر قصة إبراهيم وحيرته حتى اهتدى إلى خالقه في عشر آيات قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً . . .﴾ (٧٤- ٨٣).

وذكر مجموعة من الأنبياء قبل وبعد إبراهيم فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ . . .﴾.

إلى أن قال: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ . . .﴾ (٨٤- ٩٠).

ثم ذكر إشارات أخرى إلى أمم ورسل سابقين.

فناسب ذكر القصص التي تستدعي الحذر والموعظة قوله تعالى: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾.

وأما في سورة الزمر فلم يأت شيء من ذلك، ولم تأت إشارة إلى الأمم السابقة غير قوله: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٥، ٢٦).

ثم إنه ورد في سورة الزمر من ذكر الكتاب وما يقتضي تلاوته الكثير، فقد قال في أول سورة الزمر: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ (١، ٢).

والكتاب إنما أُنزل ليُتلى ويُتبع ما فيه.

وقال: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (٢٣).

وذلك عند تلاوته أو سماع تلاوته.

وقال: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (٢٧ ، ٢٨). وذلك يتبين من تلاوته.

وقال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ (٤١). وإنما أنزله ليتلوه عباده ويعملوا بما فيه ويتعظوا.

وقال: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (٥٥)، وذلك يكون بتلاوته والاطلاع على ما فيه.

حتى إنه ذكر الكتاب في مشهد من مشاهد القيامة فقال: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾، والكتاب إنما جيء به ليَطلع عليه مَن يطلع، وذلك إنما يكون بتلاوة ما فيه.

ومما قيل في ذلك الكتاب إنه صحائف الأعمال، وقيل: إنه اللوح المحفوظ، وقيل غير ذلك، فناسب ذكر التلاوة في الزمر والقصّ في الأنعام، والله أعلم.

❀ ❀ ❀

٣٥ – قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٨).

وقال في سورة (ص): ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٤، ٨٥).

سؤال: *لماذا قدّم في آية الأعراف مَن تبعه على ملء جهنم، فقال:* ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

وقدّم ملء جهنم على مَن تبعه في آية (ص) فقال: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾؟

الجواب: إن كلتا الآيتين في قصة آدم وإبليس في السورتين، وقد تقدم قبل هذه القصة في سورة (ص) الكلام على جهنم وعذابها، وذلك من قوله: ﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ...﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ (من الآية ٥٥ إلى ٦٤).

فلما تقدم الكلام على جهنم قدّم ما يتعلق بها وهو ملء جهنم.

وأما في سورة الأعراف، فقد تأخر ذكر جهنم وعذابها عن هذه القصة، فلما تأخر ذكر جهنم أخّر ما يتعلق بها في القصة.

هذا أمر، والأمر الآخر أنه تقدم على القصة في الأعراف ذكر مَن تبع إبليس ممن أهلكهم الله من أهل القرى فقال: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٤، ٥).

وتَقدَّمها عتابُ ربنا لأهل الأرض لقلة شكرهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (١٠).

فكأنه صدّق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه حين قال في قصة آدم في هذه السورة : ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (١٧).

فناسب تقديم مَن اتبعوه في الأعراف من هذه الناحية أيضًا

هذا إضافة إلى أن إبليس ذكر في الأعراف ما سيحتال لذرية آدم ليتبعوه أكثر مما ذكره في (ص)، فقد قال :

١ - ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ .

٢ - ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ .

٣ - ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ .

٤ - ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ .

٥ - ﴿وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾ .

٦ - ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٦)

في حين قال في (ص):

١ - ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (ص: ٨٢، ٨٣)، فلما أفاض فيما سيفعله ويحتال لذرية آدم في الأعراف ليتبعوه ناسب أن يقدم مَن تبعه من هذه الذرية، بخلاف ما في (ص) التي لم تكن فيها مثل هذه المناسبة، فناسب كل تعبير مكانه من كل وجه .

❀ ❀ ❀

٣٦ - قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٥، ٥٦).

وقال فيها: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ (٢٠٥).

وقال في سورة الأنعام: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ (٦٣، ٦٤).

سؤال: *لماذا ذكر الخوف في آيتي الأعراف، فقال في الآية الأولى:* ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ *وقال في الآية الثانية:* ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ *والخيفة هي الخوف، ولم يذكر الخوف في آية الأنعام، وإنما قال:* ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ *والخفية نقيض الجهر؟*

الجواب: إن الدعاء والذكر المذكورين في آيتي الأعراف إنما هما في مقام العبادة، والخوف المذكور فيهما إنما هو الخوف من الله دعاء وذكراً.

وأما آية الأنعام فهي في مقام الخوف مما قد يحيط بالناس في ظلمات البر والبحر، فلو ذكر الخوف لانصرف إلى هذه الأمور المخوفة ولم ينصرف إلى الخوف من الله.

والخوف في مثل هذه المواطن مما يعتري النفس البشرية، وهذا ظاهر معلوم، وقد أوضحته الآية وسياقها، فقد ذكر تضرعهم وتذللهم إليه سبحانه قائلين: ﴿لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ وطلب النجاة إنما يكون من الأمور المخوفة.

وقال بعد ذلك: ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ فسمى ذلك كربًا، فاتضح الفرق بين الموضعين فناسب كل تعبير موضعه.

❀ ❀ ❀

٣٧ - قال تعالى في سورة الأعراف في قصة نوح: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ (٦٤).

وقال في سورة يونس في قصة نوح: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ (٧٣).

سؤال: *لماذا قال في سورة الأعراف: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ وقال في سورة يونس: ﴿وَمَن مَّعَهُ﴾؟* (١)

الجواب: من أوجه منها:

١ - أن (الذين) اسم موصول مختص وهو يخص جماعة الذكور العقلاء، ولا يُطلق على المفرد أو المثنى.

وأما (من) فإنه اسم موصول مشترك يطلق على المفرد والمثنى والجمع المذكر والمؤنث.

وأن سياق القصة في سورة يونس فيه إلماح إلى أن قومه كبر عليهم تذكيره لهم بآيات ربهم وبقاؤه بينهم يبلّغ دعوة ربه، وأن نوحًا تحدّاهم بأن يجمعوا أمرهم ويسعوا في إهلاكه وألا يمهلوه، قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ (٧١).

وليس الأمر في الأعراف كذلك، وإنما هو تبليغ ودعوة، وقصارى ما قال فيه الملأ من قومه: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، فردّ عليهم قائلاً: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

---

(١) أما السؤال عن نجينا وأنجيناه فقد ذكرناه في كتابنا (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني) (ص٧٢).

فلمـا كانت المواجـهة في يونـس أشد وأنه تحـداهم أن يجمـعوا أمـرهم ويسـعوا في إهلاكـه وألا يُمهلوه كـان ذلك مدعـاة إلى قلة من يؤمن له وأن يخاف من يخاف في مثل هذا الظرف العصيب.

فقال في هـذا السياق: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ﴾ وهذا يحتـمل في اللغة أن يكون معه شخص أو شخصان وليس فيه تنصيص على الجمع.

وأما في الأعراف فإن قوله: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ تنصيص على أن معه جمـاعة من المؤمنين له، وليس شـخصًا واحـدًا أو شخصين قطعًـا، فناسبت حالة التحدي والمواجهة الشديدة أن يقول: (من) التي ليس فيها تنصيص على الجمع.

وفي الحالة الأخرى أن يقول: (الذين) التي هي تنصيص على أن المؤمنين له جماعة، وليس واحدًا ذلك أن السيـاق لا يستدعي مثل حالة الخوف تلك، ولا يستدعي قلة المؤمنين على النحو الذي في يونس.

٢ - إن القصة في الأعراف أطول مما في يونس، فإنها في الأعراف ست آيات، من الآية التاسعة والخـمسين إلى الآية الرابعة والستين، وهي في يونس ثلاث آيات من الآية الحادية والسبعين إلى الآية الثالثة والسبعين.

وإن كلمـة (الذين) أطول من (من) فناسب في مـقـام الإطالة أن يأتي بأطول الكلمتين.

٣ - وعلاوة على ذلك فإن كلمة (من) في يونس أكثر مما في الأعراف.

وإن كلمة (الذين) في الأعـراف أكثـر مما في يونس، فـإن كلمـة (من) وردت في يونس (٢٤) أربعًا وعشرين مرة، ووردت في الأعراف (١٨) ثماني عشرة مرة.

وأن كلمة (الذين) وردت في الأعراف (٤٧) سبعًا وأربعين مرة، ووردت في يونس (٢٨) ثمانيًا وعشرين مرة.

فناسب كل تعبير موضعه من حيث السمة التعبيرية لكل سورة[١].

فاتضح أن كل تعبير مناسب لموضعه الذي ورد فيه من كل وجه.

❀ ❀ ❀

٣٨- قال تعالى في سورة الأعراف (١٢٣): ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾.

وقال في سورة طه (٧١)، وفي سورة الشعراء (٤٩): ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾.

سؤال: *لماذا قال في سورة الأعراف: ﴿آمَنتُم بِهِ﴾ وقال في سورتي طه، والشعراء: ﴿آمَنتُمْ لَهُ﴾؟*

الجواب: إن معنى: ﴿آمَنتُم بِهِ﴾ أي بالله تعالى.

و: ﴿آمَنتُمْ لَهُ﴾ أي: لموسى عليه السلام، والمعنى صدّقتم وأقررتم له، والسياق يوضح ذلك.

قال تعالى في الأعراف: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾.

وقال في سورة طه: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾،

---

(١) انظر موضوع (السمة التعبيرية للسياق) في كتابنا (التعبير القرآني).

فقوله: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ يعني موسى عليه السلام.

وقال في سورة الشعراء: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (٤٨) قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾. وهو نحو ما مر في طه.

وإذا رأيت الإيمان معدى باللام فاعلم أنه لغير الله فإنه لا يعديه مع الله إلا بالباء نحو قوله: ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ (الممتحنة: ٤) وقوله: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وفي القرآن عدى (آمن) باللام مع الأشخاص غالبًا، وذلك نحو قوله: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ (البقرة: ٥٥)، وقوله: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ (التوبة: ٩٤)، وقوله: ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة: ٦١).

وربما استعمله مع غير الأشخاص نادرًا وذلك نحو قوله: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾ (الإسراء: ٩٣).

❀ ❀ ❀

٣٩ – قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ (١٤٤، ١٤٥).

سؤال: لماذا قال في الآية الأولى: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾، وقال في الآية التالية لها: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ فذكر القوة ولم يذكرها في الآية الأولى؟

الجواب: إن ذلك لعدة أمور منها: -

١ – أن الآية الأولى في الإيتاء، والثانية في الإيتاء والتبليغ، فقد أمره

في الآية الثانية أن يأخذ ما آتاه بقوة، ويُبلغه قومه، فقد قال له فيها: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾، وهذا أمر بالتبليغ، والتبليغ يحتاج إلى قوة وجهد وعزيمة.

٢ - إنه طلب من قومه في الآية الثانية أن يأخذوا بأحسنها، فإنه لم يقل: (وأمر قومك يأخذوا بها) بل قال: ﴿يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ وهو أقوى من عموم الأخذ وآكد، ذلك أن فيما آتاه حسنًا وأحسن فأمرهم أن يأخذوا بالأحسن، فإذا كان قومه مأمورين بما هو أقوى وآكد ناسب أن يكون هو كذلك، فكان مأمورًا أن يأخذها بقوة.

٣ - إن في الآية الثانية تفصيلاً ليس في الآية الأولى.

فإنه قال في الآية الأولى: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾، فقال: ﴿مَا آتَيْتُكَ﴾ على الإجمال.

وفصّل في الآية الثانية ما آتاه، فقال: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾.

وأجمل في الطلب في الآية الأولى، فقال: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾، وفصّل في الآية الثانية ما أجمله في الآية الأولى من الطلب، فقال: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾.

فكما أجمل في ذكر ما آتاه في الآية الأولى أجمل في الأمر بأخذها، وكما فصّل في ذكر ما آتاه في الآية الثانية فصل وبيّن في الأمر بأخذه، فناسب الإجمال الإجمال، والتفصيل التفصيل.

٤ - ومما حسّن ذلك أيضًا إضافة إلى ما ذكرنا أن الآية الأولى وردت عقب إفاقة موسى بعدما خرّ صعقًا، فقد جاءت الآية الأولى عقب قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٤٣).

في الآية الثانية أن يأخذ ما آتاه بقوة، ويبلغه قومه، فقد قال له فيها: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾، وهذا أمر بالتبليغ، والتبليغ يحتاج إلى قوة وجهد وعزيمة.

٢ - إنه طلب من قومه في الآية الثانية أن يأخذوا بأحسنها، فإنه لم يقل: (وأمر قومك يأخذوا بها) بل قال: ﴿يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ وهو أقوى من عموم الأخذ وآكد، ذلك أن فيما آتاه حسنًا وأحسن فأمرهم أن يأخذوا بالأحسن، فإذا كان قومه مأمورين بما هو أقوى وآكد ناسب أن يكون هو كذلك، فكان مأمورًا أن يأخذها بقوة.

٣ - إن في الآية الثانية تفصيلاً ليس في الآية الأولى.

فإنه قال في الآية الأولى: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾، فقال: ﴿مَا آتَيْتُكَ﴾ على الإجمال.

وفصّل في الآية الثانية ما آتاه، فقال: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾.

وأجمل في الطلب في الآية الأولى، فقال: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾، وفصّل في الآية الثانية ما أجمله في الآية الأولى من الطلب، فقال: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾.

فكما أجمل في ذكر ما آتاه في الآية الأولى أجمل في الأمر بأخذها، وكما فصّل في ذكر ما آتاه في الآية الثانية فصل وبيّن في الأمر بأخذه، فناسب الإجمال الإجمال، والتفصيل التفصيل.

٤ - ومما حسّن ذلك أيضًا إضافة إلى ما ذكرنا أن الآية الأولى وردت عقب إفاقة موسى بعدما خرّ صعقًا، فقد جاءت الآية الأولى عقب قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٤٣).

والإنسان بعدما يفيق من صعقة يصعقها يكون واهن القوى.

وقد ذكر قبل الآية الأولى أكثر من أمر يدعو إلى وهن القوة، فقد ذكر أنه ﴿خَرَّ﴾ أي قد هوى وسقط، والخرور مدعاة إلى الوهن.

وذكر أنه (صعق) أي غشي عليه، ومعنى (صعق) في اللغة غُشي عليه وذهب عقله[(١)]، وأن قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ دليل على الغشي[(٢)]. والصعق مدعاة إلى وهن القوى.

فكل من الخرور والصعق يدعو إلى الوهن فكيف إذا اجتمعا؟

فلم يذكر الأخذ بالقوة بعد ذكر الإفاقة مباشرة إذ العادة أن يكون الإنسان واهنًا في مثل هذا الوقت فأخره إلى ما بعد ذلك في الآية الثانية، فناسب كل تعبير موضعه من كل وجه، و الله أعلم.

❀ ❀ ❀

(١) انظر لسان العرب (صعق) (١٢/ ٦٦).

(٢) انظر لسان العرب (صعق) (١٢/ ٦٧).

٤٠ – قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (٥٢، ٥٤).

سؤال:

١ – ما الفرق بين الدأبين المذكورين لآل فرعون في الآية الثانية والخمسين والآية الرابعة والخمسين؟.

٢ – لماذا قال في الآية الثانية والخمسين: ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾، وقال في الآية الرابعة والخمسين: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾؟

الجواب:

١ – الدأب الأول هو مشابهتهم لهم في الكفر ذلك أنه سبق الآية الأولى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٥١) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ . . .﴾(٥٠– ٥٢).

فالدأب الأول هو مشابهتهم في الكفر والجري على عادتهم، ألا ترى أنه قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ﴾، ثم قال: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾.

أما الدأب الثاني فإنه مشابهتهم لهم في تغيير النعم والأحوال، فقد قال قبل الآية الرابعة والخمسين: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ

حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٥٣)، ثم قال بعدها: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾.

قد تقول: وما التغيير الذي أحدثوه فإنهم كفار على كل حال ولم يغيروا شيئًا؟

فنقول: إنهم كانوا على حال من الكفر حتى جاء موسى فدعاهم وأنذرهم وجاءهم بالآيات الدالة على صدقه، فكذبوا بها فزادوا على ما هم عليه تكذيبهم بآيات الله كما قال تعالى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ فعاجلهم العقوبة بالإغراق.

جاء في «البحر المحيط»: «وتغيير آل فرعون ومشركي مكة ومَن يجري مجراهم بأن كانوا كفارًا ولم تكن لهم حالة مرضية فغيروا تلك الحالة المسخوطة إلى أسخط منها من تكذيب الرسل والمعاندة والتخريب وقتل الأنبياء والسعي في إبطال آيات الله فغير الله تعالى ما كان أنعم عليهم به وعاجلهم ولم يمهلهم»(١).

وجاء في «الكشاف» : «أي: دأب هؤلاء مثل دأب آل فرعون، ودأبهم عادتهم وعملهم الذي دأبوا فيه أي داوموا عليه وواظبوا، و(كفروا) تفسير لدأب آل فرعون . . .

﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ فإن قلت: فما كان من تغيير آل فرعون ومشركي مكة حتى غيّر الله نعمته عليهم، ولم تكن لهم حال مرضية فيغيروها إلى حال مسخوطة؟

قلت: كما تغيرت الحال المرضية إلى المسخوطة تغيرت الحال المسخوطة إلى أسخط منها.

---

(١) البحر المحيط (٤/٥٠٧).

وأولئك كانوا قبل بعـثة الرسول إليهم كفرة عبـدة أصنام فلما بعث إليهم بالآيات البينات فكذبوه وعـادوه وتحزبوا عليه في إراقة دمه غـيروا حالهم إلى أسوأ مما كانت فغير الله ما أنعم به عليهم من الإمهال وعاجلهم بالعذاب»[1].

٢ - وأما الجواب عن السـؤال الثاني فإن كل عقوبة مناسـبة للحالة التي هم فيها، فقد قال في الآية الأولى: ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ وقال في الأخرى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾.

ذلك أن الكفر أعمّ من التكذيب بآيات الله، فـقد يكون الكفر بالتكذيب وبغيره من نحو عبادة غير الله والمعتـقدات الباطلة وغير ذلك من نحو ما أخبر به ربنا في قوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ﴾ (المائدة: ٧٣)، وقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ (المائدة: ٧٢)، وقوله: ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ (المائدة: ١٠٣).

فالتكذيب بآيات الله نوع من أنواع الكفر.

فقـال في عقـوبة الكفر: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ وهو أمر عـام يشمل عقوبات الدنيا والآخرة.

وقـال في عـقوبـة التكذيب بالآيات: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾، وهذه حالة من حالات الأخذ بالذنوب، فقد يكون الأخذ بالذنوب بالتعذيب والسجن والنار وغير ذلك.

فجـعل عقـوبة الكفر الذي هو عـام الأخذ بالذنوب وهو عـام، وجعل عقـوبة التكذيب بالآيات الذي هو أخص من الكفـر بالإهلاك والإغراق وهو أخص.

هذا من ناحـية، ومن ناحـية أخرى أن قـوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾

---

(١) الكشاف (٢/ ٢٠).

عقاب عام قد يكون في الدنيا، وقد يكون في الآخرة، وقد يكون فيهما.

وأما قوله: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ فإنه عقاب في الدنيا فهو أخص من حيث الوقت، فإن الإهلاك والإغراق إنما يكونان في الدنيا وليسا من عقاب الآخرة، فكانت عقوبة الكفر أعمّ من حيث النوع والوقت.

ومن الملاحظ أنه قال في الآية الرابعة والخمسين: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ فذكر الرب وأضافه إلى ضميرهم في حين قال في الآية الثانية والخمسين: ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ ذلك أنه قبل ذكر التكذيب بآيات ربهم ذكر نعمه عليهم، فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ فناسب ذكر الرب لأن الرب هو المربي والمنعم، جاء في «روح المعاني»: «وأشير بلفظ الرب إلى أن ذلك التغيير كان بكفر نعمه تعالى لما فيه من الدلالة على أنه مربيهم المنعم عليهم»[1].

ثم إنه أضاف الرب إلى ضميرهم ليبين قبح كفرهم فإنهم كفروا بآيات ربهم الذي أنعم عليهم، فإنه من أقبح كفر النعم أن تكفر نعمة ربك الذي رباك وأنعم عليك، فذلك أدل على قبح كفرهم.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه ذكر مرة لفظ الجلالة (الله)، ومرة ذكر الرب ليدل على أن الرب هو الله وليس شيئًا آخر.

❀ ❀ ❀

---

(١) روح المعاني (١٠/ ٢٠).

٤١ – قال تعالى في سورة يونس: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٩)، وقال في سورة هود: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ (١١٠)، وقال في سورة فصلت: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ (٤٥)، وقال في سورة الشورى: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ (١٤).

سؤال: ***لماذا قال في آية الشورى: ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ولم يقل مثل ذلك في بقية الآيات؟***

الجواب: إن الآيات في يونس وهود وفصلت إنما هي في أمة واحدة، والقضاء يمكن أن يكون بينهم عاجلاً أو آجلاً.

أما آية الشورى فهي في أمم مختلفة أكثرها هالك فلا يمكن القضاء بينهم في الدنيا، وإنما يقضى بينهم في الآخرة، وهو الأجل المسمى لذلك.

وإيضاح ذلك أنه قال في يونس: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فهي أمة واحدة اختلفت والقضاء بينهم ممكن لأنهم أمة واحدة مختلفة.

وقال في هود: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾، وهذه الآية في بني إسرائيل حين اختلفوا في الكتاب، والقضاء بينهم ممكن في الحياة الدنيا، ونحوها آية فصلت فإنها تطابق آية هود، قال تعالى في فصلت: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾.

وأما آية الشورى فهي في سياق أمم مختلفة متعاقبة منها أمم مندثرة هالكة فكيف يكون القضاء بينها في غير اليوم الآخر وهو الأجل المسمى؟ قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ

إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب (١٣) وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب﴾ (١٣، ١٤).

فناسب كل تعبير مكانه.

❀ ❀ ❀

٤٢ – قال تعالى في سورة يونس: ﴿وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون﴾ (٤٦).

وقال في سورة غافر: ﴿فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون﴾ (٧٧).

وقال في سورة الرعد: ﴿وإن ما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾ (٤٠).

سؤال: *لماذا رسمت ﴿إما﴾ في آيتي يونس وغافر متصلة، ورسمت في آية الرعد: ﴿وإن ما﴾ منفصلة مع أنها كلها في هذه الآيات إنما هي (إنْ) الشرطية مع (ما) الزائدة المؤكدة؟*

الجواب: إن هذا من أمور رسم المصحف، ورسم المصحف لا يقاس عليه، ولكن مع ذلك قد يبدو أن لهذا الاختلاف تعليلاً ولا ندري إن كان مقصودًا أم لا.

فنقول: إن السياق في آيتي يونس وغافر إنما هو في الكلام على الآخرة، والآيتان تذكران الرجوع إلى الله، فقد قال في آية يونس: ﴿فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون﴾ وقال في آية غافر: ﴿فإلينا يرجعون﴾، وهذا الرجوع في الآيتين إنما هو في الآخرة

قال تعالى في يونس: ﴿ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين (٤٥) وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون (٤٦) ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون﴾ (٤٥-٤٧).

فقوله: ﴿فإلينا مرجعهم﴾ يعني في يوم القيامة، وهو متصل بما ذكره من أمور الآخرة، وواقع فيه.

وقال في غافر: ﴿الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون (٧٠) إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون (٧١) في الحميم ثم في النار يسجرون (٧٢) ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون (٧٣) من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعو من قبل شيئا كذلك يضل الله الكافرين (٧٤) ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون (٧٥) ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين (٧٦) فاصبر إن وعد الله حق فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون﴾ (٧٠ - ٧٧).

فالكلام كما ترى في سياق عذاب الآخرة، وقد وقعت الآية في هذا السياق فإن قوله: ﴿فإلينا يرجعون﴾ يعني في الآخرة، وهو متصل بما ذكره من أمور الآخرة.

وأما السياق في الرعد فهو في الدنيا، فقد جاء قبل الآية قوله: ﴿وكذلك أنزلناه حكما عربيا ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا واق (٣٧) ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله لكل أجل كتاب (٣٨) يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب (٣٩) وإن ما نرينك . . .﴾ الآية (٣٧- ٤٠).

وجاء بعـدها قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٤١).

فقوله: ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ إنما هو في الآخرة، فهو يذكـر أمرًا سيقع في الآخرة، والكـلام إنما هو على الدنيا بخـلاف آيتي يونس وغافـر فإنهـما في سياق الآخرة.

ففُصِلت (ما) عن (إن) في الرعـد إشارة إلى الـفصل بين الأحـداث، فالكلام على الدنيا والحساب إنما هو في الآخرة.

ووصلت (مـا) بـ(إن) في آيتي يونس وغـافـر إشـارة إلى أن الأحـداث متصلة ببعضها، والله أعلم.

۞ ۞ ۞

٤٣ – قـال في سـورة يونس (١٠٤): ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾.

وقال في سورة القمر: (٥): ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾.

سؤال: ***لماذا رُسم الفعل (تـغني) في آية يونس بالياء، ورُسم في آية القـمر من دون ياء أي: (تغن)؟***

الجواب: أن رسم المصحف لا يُقاس عليه كما هو معلوم، ومع ذلك فإنه يبدو أن هذا الاختلاف في الرسم له دلالته.

فلقد زاد في آية يونـس على ما في القمر، فقد قال في القمر: ﴿ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾، وقال في يونس: ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ﴾ فزاد الآيات على النذر فزاد في الرسم تبعًا لذلك.

ثم إنه عندمـا تزيد دواعي الإغنـاء ينبـغي أن يزيد الإغناء، فلمـا زادت الدواعي في يونس انبغى أن يزيد الإغناء.

ولما نقصت الدواعي في القمر نقص شيء من الحدث تبعًا لذلك، فنقص من الرسم في القمر مناسبة لنقص الدواعي، والله أعلم.

❀ ❀ ❀

٤٤ - قال تعـالى في سورة هود (٢٠): ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾

وقال في سورة الشورى(٣١): ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

سؤال: *لماذا قال في هود: ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ﴾ وقال: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ فجاء بالفعل الماضي، وقال في سورة الشورى: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ وقال: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ بأسلوب الخطاب للحاضر؟*

الجواب: إن الكلام في هود إنما هو في الآخرة، وهو يدور على أحداث ماضية كانت في الدنيا، فقد قال: ﴿أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (١٨) فاقتضى ذكر الفعل الماضي، وأما الخطاب في الشورى فهو في الدنيا، قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ (٣٠). فاقتضى كل منهما ما ذكر في موضعه.

❀ ❀ ❀

٤٥ - قال تعالى في سورة هود: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٤٠).

السؤال الأول: *ما المقصود بـ(أهلك) أهم الأهل أم هو فعل ماضٍ من الإهلاك؟*

الجواب: إن المقصود بـ(أهلك) هم الأهل وليس فعلاً ماضيًا ، ويدل على ذلك أمور منها :

١ - أن الإهلاك لم يحصل بعد ، وأن المؤمنين لم يركبوا بعد في السفينة ، فإنه قال بعد هذه الآية : ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ (٤١) .

٢ - لو كان (أهلك) فعلاً ماضيًا لكان الاستثناء مفرغًا ، أي إن المستثنى منه غير مذكور ، والاستثناء المفرغ إنما يكون في النفي وشبهه ولا يقع في الإثبات إلا نادراً ، والفعل في الآية مثبت فلا يترجح أنه فعل .

٣ - ومما يدل على أن المقصود بـ(أهلك) هم الأهل قوله تعالى في سورة (المؤمنون) : ﴿وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ (٢٧) فإن الضمير في (منهم) يعود على الأهل .

٤ - لو كان المقصود بـ(أهلك) الفعل لكان الناجون جماعتين :

أ- مَن سبق عليه القول .

ب- ومَن آمن .

وهذا يقتضي أن مَن سبق عليه القول ليسوا ممن آمن ، ومع ذلك فقد نجا ، وهذا لا يصح .

٥ - المجيء بـ (على) مع الفعل (سبق) يدل على أن المقصود بمن سبق عليه القول أنه معذب كقوله تعالى : ﴿حق عليهم القول﴾ و : ﴿حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ﴾ ونحو ذلك .

بخلاف استعماله مع اللام فـإنه بشرى بالحسنى كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠١)، وقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾ (الصافات: ١٧١، ١٧٢).

السؤال الثاني: *قال في هذه الآية - آية هود-: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ﴾، وقال في آية (المؤمنون): ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ فذكر في آية (المؤمنون) (منهم) ولم يذكر ذلك في آية هود فما سبب ذلك؟*

الجواب: إن القصة في سورة هود مبنية عـلى العموم في أكثر من جانب من جوانبـها، أما القصة في سورة (المؤمنون) فمبنيـة على الخصوص، ومما يوضح ذلك:

١ - قوله في هود: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾، وقوله في (المؤمنون): ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ وما في هود أعم مما في (المؤمنون) فإنه لم يقل: (منهم).

٢ - أنه قـال في هود: ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ فـزاد على الأهل: ﴿مَنْ آمَنَ﴾ ولم يذكر ذلك في (المؤمنون).

ولا شك أن ما في هود أعم فإنه زاد على الأهل من آمن.

٣ - أنه قـال في هود: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ (٤٣)، وهذا يفيد العـموم فإنه استغـرق نفي العاصم إلا مَن رحم الله وذلك أنه نفى بـ(لا) النافية للجنس، ولم يقل مثل ذلك في (المؤمنون).

٤ - قال في هود: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ

مَمَّن مَّعَكَ﴾ (٤٨). وقال في (المؤمنون): ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ (٢٩).

فإنه في هود زاد السلام على البـركات، ولم يذكر ذلك في (المؤمنون)، وقال في هود: ﴿وَبَرَكَاتٍ﴾ وهو جمع بركـة، في حين قال في (المؤمنون): ﴿مُنزَلاً مُّبَارَكًا﴾ بالإفراد.

وقال في هود: ﴿عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾، ولم يقل مـثل ذلك في (المؤمنون)، وإنما دعا لنفسه : ﴿أَنزِلْنِي﴾.

❀ ❀ ❀

٤٦ – قال تعالى في سـورة هود في قصة عاد: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (٦٠).

وقال في سـورة هود أيضًا في قوم فـرعون: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ (٩٩).

سؤال: ***لماذا قال في عاد: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ فذكر (الدنيا)، وقال في قـوم فرعـون: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً﴾ ولـم يذكـر الدنيـا، مع أن المقصـود بالإشارة هي الدنيا؟***

الجواب:

١ – إن قصة عاد في السورة أطول من قصة موسى وفرعون، فقصة عاد إحدى عشرة آيـة تبدأ من الآية الخمسين إلى الآية الستين، وأما قـصة موسى فهي أربع آيات من الآية السادسة والتسعين إلى الآية التاسعة والتسعين.

فناسب ذكر (الدنيا) مقام الإطالـة والتبسط في قصة عـاد، وناسب عدم ذكرها والاكتفاء بالإشارة إليها في مقام الإيجاز.

٢ – ذكر في قصة عـاد أمورًا تتعلق بالدنيا منها أنه قـال فيها: ﴿وَيَا قَوْمِ

استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم﴾ (٥٢)، فقد ذكر في هذه الآية أمرين مهمين من أمور الدنيا:

أحدهما: سعة الرزق، وبه تقوم الحياة، وهو قوله: ﴿يرسل السماء عليكم مدرارا﴾.

والآخر: زيادة القوة، وبه استمرار الحياة الكريمة، وهو قوله: ﴿ويزدكم قوة إلى قوتكم﴾ ولم يذكر أمرًا يتعلق بالدنيا في قصة موسى.

فناسب ذكر الدنيا والإشارة إليها في قصة عاد، وعدم ذكرها والاكتفاء بالإشارة إليها في قصة موسى من هذه الجهة أيضًا.

٣ - أشار إلى العذاب الذي أحاط بعاد ونجاة هود ومَن آمن معه في الدنيا، فقال: ﴿ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ﴾ (٥٨).

ولم يُشر إلى عذاب أو عقوبة أحاطت بفرعون وملئه في الدنيا، فناسب من جهة أخرى ذكر (الدنيا) والإشارة إليها في قصة عاد، والاكتفاء بالإشارة إليها في قصة موسى.

٤ - ذكر العذاب الذي سيصيب فرعون وقومه يوم القيامة، فقال: ﴿يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود﴾ (٩٨)، ولم يذكر شيئًا عن عذاب سيصيب عادًا يوم القيامة.

فناسب من جهة أخرى ذكر الدنيا في قصة عاد، وعدم ذكرها والاكتفاء بالإشارة إليها في قصة فرعون.

ويحسن أن نذكر من جهة أخرى أنه اختلف التعقيب بعد كل قصة بما يناسب المقام، فقد قال تعقيبًا على قصة عاد: ﴿وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم

القيامة﴾، وقال تعقيبًا على قصة فرعون: ﴿يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود (٩٨) وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود﴾ (٩٨، ٩٩)، فلم يزد على قوله: ﴿ويوم القيامة﴾ في قصة عاد لأنه لم يذكر فيها أمرًا يتعلق بيوم القيامة.

وقال في قصة فرعون بعد ذكر العذاب: ﴿بئس الورد المورود﴾ ثم قال بعد قوله: ﴿ويوم القيامة﴾: ﴿بئس الرفد المرفود﴾، فكان كل تعبير أنسب بالموضع الذي ورد فيه.

❀ ❀ ❀

٤٧ – قال تعالى في سورة هود في قوم صالح: ﴿وأخذ الذين ظلموا الصيحة﴾ (٦٧).

وقال في السورة نفسها في مدين قوم شعيب: ﴿وأخذت الذين ظلموا الصيحة﴾ (٩٥).

سؤال: لماذا قال في قوم صالح: ﴿وأخذ الذين ظلموا الصيحة﴾ بتذكير الفعل (أخذ)، وقال في قوم شعيب: ﴿وأخذت الذين ظلموا الصيحة﴾ بالتأنيث مع أن الفاعل واحد، والفصل بين الفعل والفاعل واحد؟

الجواب: من المعلوم أنه يجوز في نحو هذا تذكير الفعل وتأنيثه لأن الفاعل غير حقيقي التأنيث، وأما اختيار التذكير والتأنيث في كل موضع فله أكثر من سبب منها:

١ – أنه قيل: إنه أخبر عن قوم شعيب بثلاثة أنواع من العذاب كلها مؤنثة الألفاظ، وهي: الرجفة، والصيحة، والظلة، فناسب ذلك التأنيث في أهل مدين، جاء في «درة التنزيل»: «هل لتخصيص قصة شعيب بـ(أخذت) فائدة ليست لها في قصة صالح عليه السلام؟

الجـواب عن هذا الموضع هو أن يقـال: إن الله أخبـر عن العـذاب الذي أهلك به قـوم شعيب عليـه السلام بثـلاثة ألفاظ منهـا: (الرجفـة) في سورة الأعراف في قوله: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ (٩٠- ٩٢).

وذكر ذلك قبله في مكان آخر.

ومنها (الصيحة) في سورة هود في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ (٩٤ - ٩٥).

ومنها: (الظلة) في سورة الشعـراء في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ (١٨٩).

فلما اجـتمعت ثلاثة أشـياء مؤنثـة الألفاظ في العبـارة عن العذاب الذي أُهلكوا به غلب التـأنيث في هذا المكـان على المكان الذي لم تتـوال فيـه هذه المؤنثات، فلذلك جاء في قصّة شعيب: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾»(١).

وهذا الكلام فيه نظر.

والصواب: أن مدين ذكر عنهم سـبحانه أنهم أخذتهم الصـيحة، وأنهم أخذتهم الرجفـة، وأما عذاب يوم الظلة، فإنه لم يُـصب مدين، وإنما أصاب أصحاب الأيكة، قال تعالى فيهم: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ (الشعراء: ١٨٩).
وكلاهما أُرسل إليهما شعيب. هذا من ناحية.

---

(١) درة التنزيل (٢٢٤- ٢٢٥).

ومن ناحـية أخرى أن (الرجـفة) أخـذت قوم صـالح أيضًا، قال تـعالى فيهم: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ (الاعراف: ٧٨)، فهذا التعليل فيه نظر.

٢ - إنه عبر عن عذاب قوم صـالح بالخزي فقال: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ (هود: ٦٦).

والخزي مذكر فناسب التذكير في قوم صالح[1].

قد تقول: إنه قال في قصة مدين: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ (٩٣)، والعذاب مذكر.

فنقول: إنه ذكر العذاب أيضًا في قـصة ثمود، فقال: ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ (٦٤)، وذكر الخزي علاوة على ذلك فناسب التذكير في قوم صالح.

٣ - إن التعقيب على قوم صالح وعقابهم أشد مما ذكره في قوم شعيب، فقد قال في قوم صالح: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ (٦٦- ٦٨).

وقال في قوم شعيب: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ (٩٤- ٩٥). ومن النظر في النصين يتبين لنا ما يأتي:

أ - أنه قال في قوم صالح: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾.

وقال في مدين: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾.

---

(١) انظر كتابنا (معاني النحو) (٢/ ٤٨٥- ٤٨٨) (باب الفاعل).

والفاء تفـيد التعقيب ذلك أنــه قال على لسان نبيّـها صالح: ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ (٦٤).

فناسب التوعد بالعـذاب القريب ذكر الفاء التي تفيد التـرتيب والتعقيب، ثم إن نبيـهم توعدهم بعد عقـر الناقة بالعذاب بعد ثلاثة أيام، فلمـا انقضت الأيام الثلاثة حلّ بهم العذاب، فناسب ذلك أيضًا ذكر الفاء التي تفيد الترتيب والتعقيب، وليس الأمر كذلك في مدين فناسب فيها ذكر الواو.

ب - إنه ذكر الخزي في عقوبـة قوم صالح، فقال: ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ ولم يذكر ذلك في قوم شعيب.

ج - وذكر قوة الله وعزته تعقيـبًا على هلاك قوم صالح فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾، ولـم يذكر مثل ذلك في قوم شعيب.

د - وقال في قـوم صالح: ﴿أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾، ولـم يقل مثل ذلك في قوم شعيب.

فاتضح أن التعـقيب على قوم صالح كـان أشد فجاء في عقـوبتهم بلفظ التذكير فقال: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ لأن المذكر أقوى من المؤنث

وقد ذكـرنا في تذكير وتأنيث لفـظ الملائكة أنه إذا كان ثمة أمـر أشد من آخـر كأن يكونا مـوقفي عـذاب أحـدهما أشـد من الآخر جيء بما هو أشـد بالتذكير للدلالة على قوة الأمر وشدته، فـناسب التذكير قوم صالح والتأنيث قوم شعيب.

٤ - وعلاوة على كل ذلك فـإن قصة قوم شعـيب في هذه السورة أطول من قصـة قوم صـالح، فإن قـصة قوم صـالح ثماني آيات من الآيـة الحادية والستين إلى الآية الثامنة والستين.

وإن قصة مدين اثنتا عشرة آية من الآية الرابعة والثمانين إلى الآية الخامسة

والتسعين، وإن كلمة (أخذت) أطول من (أخذ) فناسبت الكلمة الطويلة طول القصة من جهة أخرى.

٥ - وردت كلمة (العذاب) في قوم صالح في القرآن الكريم أكثر مما وردت في مدين، فإنها وردت في قوم صالح سبع مرات وهي:

قوله تعالى: ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (الأعراف: ٧٣).

وقوله: ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ (هود: ٦٤).

وقوله: ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الشعراء: ١٥٦).

وقوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ (الشعراء: ١٥٨).

وقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ (فصلت: ١٨).

وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ (القمر: ٣٠).

وقوله في عاد وثمود وفرعون: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ (الفجر: ١٣).

ووردت في أهل مدين مرة واحدة، وذلك قوله تعالى: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ (هود: ٩٣).

وإن من معاني (الصيحة) في اللغة (العذاب)[1]، فذكّر الصيحة في قوم صالح إشارة إلى معنى العذاب ومناسبة لذكره الذي تكرر فيهم، ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة إلى قوم شعيب أهل مدين فجاء بالفعل على لفظ الصيحة وهو التأنيث.

٦ - وأما قوله تعالى تعقيبًا على قوم شعيب: ﴿أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ فذلك لأن طبيعة العذاب واحدة في القومين فكلاهما أهلك بالصيحة فشبّه هلاك مدين بهلاك ثمود، و الله أعلم.

(١) انظر لسان العرب (صبح) (٣/ ٣٥٣).

٤٨ - قـال تعـالى في سـورة يوسف: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُـرْآنًا عَـرَبِيًّـا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(٢).

وقال في سورة الزخرف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٣).

سؤال: *لماذا ذكر الإنزال في آية يوسف والجعل في الزخرف؟*

الجواب: لقد ذكر الإنزال في آية يوسف لأنه ذكر ما يتعلق بالإنزال وهو قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ . . . لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ (٣-٧).

فقد ذكر أن ربه يقص عليه أحسن القصص وأنه أوحى إليه هذا القرآن، وأن هذه القصة جواب للسائلين عنها، ومعنى ذلك أنه أنزله إليه.

وسورة يوسف هي في عمومها سرد لقصة يوسف التي سُئل عنها رسول الله فقد ذكر في أسباب نزولها أن جـماعة من اليهود سألوا رسول الله ﷺ أن يحدثهم بأمر يعقوب وولده وشأن يوسف وما انتهى إليه.

وقيل إن جماعة من اليـهود وجهوا إلى رسول الله ﷺ من أهل المدينة مَن يسأله عن رجل من الأنبـياء كان بالشـام أخرج ابنه إلى مصر فـبكى عليه حتى عمي. ولـم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب، ولا من يعرف خبر الأنبياء فأنزل الله سورة يوسف جملة واحدة كما في التوراة[١].

وقد قال سبحـانه في آخر القصة: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (١٠٢).

فقد ذكـر سبحانه أن هذا من أنباء الغـيب فدل ذلك على أن هذا الكتاب إنما هو إنزال من عند الله لأن قومه لا يعلمون عن هذه القـصة شيئًا، فناسب ذلك ذكر الإنزال.

---

(١) انظر روح المعاني (١٢/ ١٧٠)، فتح القدير (٣/ ٦).

أما في آية الزخـرف فلم يذكر الإنزال، وإنما ذكر الجعل لأنه لم يـذكر ما يتعلق بالإنـزال فقد قـال بعدها: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (٤)، ففي قـوله: ﴿فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾ و﴿لَدَيْنَا﴾ و﴿لَعَلِيٌّ﴾ دلالة على أن الكلام ليس على الإنزال وإنما على ما هو في الأعلى فلم يذكر الإنزال.

ثم إنه تردد لفظ الجعل في السورة عدة مرات من نحو قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٠)، وقوله: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ (١٥)، وقوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾ (١٩)، وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ (٦٠)، وغيره، فناسب ذكر الجعل فيها.

هذا من جهة، ومن جـهة أخرى أن لفظ (الجعل) ورد في الزخرف أكثر مما في سورة يوسف، فقد ورد في الزخرف (١١) إحدى عشرة مرة، وورد في سورة يوسف (٤) أربع مرات.

وإن الإنزال ومشتقاته ورد في يوسف (٣) ثلاث مرات وورد في الزخرف مرة واحـدة، فناسب ذكر الجـعل في الزخرف والإنزال في يوسف من جـهة أخرى.

جاء في «مـلاك التأويل» في سبب الاخـتلاف بين هاتين الآيتين: «أن آية سورة يوسف لما كانت توطئة لذكر قصصه عليه الصلاة والسلام... ومستوفيًا ما كان أهل الكتاب يظنون أنهم انفردوا بعلمه فأنزل الله هذه السورة موفية من ذلك أتمه ومعرّفة من قـصصه العجيب ومؤدية أكمله وأعـمه ولا أنسب عبارة من قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ ليعلم العرب وأهل الكتاب أن ذلك منزل من عند الله تعالى... وليقطع العرب والجميع أن محمداً ﷺ لم يتلق ذلك القصص من أحـد من العرب إذ لم يكن عندهم مـن نبأ، ولا رحل في

تعرَّفه إلى أحــد فكان قصصًا وآية مُـعْلِمًا بصحة رسـالته ﷺ وعظيم تلك العناية، فالتعبير بالإنزال هنا بيِّن.

وأما آية الزخـرف فلم تُبْنَ على إخبار بل أعـقبت بآي الاعتـبار واللطف والتنبيه والتذكار»(١).

❀ ❀ ❀

(١) ملاك التأويل (٢/ ٥٣٦- ٥٣٧).

٤٩ – يقول الله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ (الرعد: ١٥).

ويقول: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ (الحج: ١٨).

بإسناد الفعل (يسجد) إلى: (مَن) التي هي للعاقل في الآيتين.

وقال في آية أخرى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (النحل: ٤٨، ٤٩)، بإسناد الفعل (يسجد) إلى (ما) فما السبب؟

الجواب: قال تعالى في آية الرعد: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾، والطوع والكره من صفات العقلاء؛ إذ العاقل هو الذي يختار الفعل طوعًا أو يُستكره عليه، فناسب إسناد السجود إلى (مَن) التي هي للعاقل.

وأما آية الحج فإنها في سياق العقلاء، فقد قال قبلها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ ...﴾ الآية.

فناسب إسناد السجود إلى (مَن) أيضًا.

وأما آية النحل فإنها ذُكرت في سياق العموم، فقد جاء قبل الآية قوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ

سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ . . . ﴾ الآية ، فقد قال : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ وكلمة (شيء) تدل على العموم من عاقل وغيره ، هذا من جهة .

ومن جهة أخـرى أنه قال في الآية : ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ﴾ فبين الـساجدين بـقوله : (من دابة)، وكلمة (دابة) عامـة ، واستـعمالها في غـير العاقل هو الغـالب ، فناسب إسناد الفعل إلى (ما) من جهتين :

الأولى: العموم في (شيء).

والأخرى : العموم وغلبة غير العاقل في (دابة).

و (ما) كمـا هو معلوم أعم من (مَن)، وما تدل عليه أكـثر مما تدل عليه (مَن) .

فإن (مَن) خاصة بذوات العـقلاء ، وأما (ما) فهي تدل على ذوات ما لا يعقل وعلى صفات العقلاء .

فـالأول نحو قـولك : (آكل مـا تأكل وأركب ما تـركب)، قال تعـالى : ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ (المؤمنون: ٣٣) .

والثانـي : نحو قولك (مـا زيد ؟) فتـقول : تاجـر أو كاتب ، ونحـو قوله تعالى : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ (الشمس: ٧)، والذي سوّاها هـو الله، وقوله : ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ (النساء: ٣)، فاتضح أن مـا تدل عليه (ما) أعمّ وأكثـر مما تدل عليه (من) فذوات غيـر العاقل أكثر من ذوات الـعقلاء ، فكيف إذا أُضيف إليهم صفات العقلاء ؟

فناسب العمـوم كلمة (ما) في آية النحل إضافـة إلى ما بيّن به (ما) من غير العاقل أو مـا غلب فيه ذلك ، وهو قوله : (من دابة) فناسب ذلك : (ما) أيضًا

ومن اللطيف أن نذكر ههنا أن الله سبحانه إذا أسند السجود، إلى (مَن) أتبعه بذكر غير العاقل، وإذا أسنده إلى (ما) أتبعه بذكر العاقل.

فقد قال في آية الرعد: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ﴾ ثم عطف عليه بقوله: ﴿وَظِلالُهُم﴾ والظلال غير عاقلة.

وقال في آية الحج: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ﴾، وعطف عليه الشمس والقمر والنجوم ونحوها.

وقال في آية النحل: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ وعطف عليه الملائكة، حتى إنه فعل ذلك مع فعل التسبيح في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾ (النور: ٤١) فعطف (الطير) على: ﴿مَن فِي السَّمَوَاتِ﴾.

وقد تقول: ولِمَ قال في آية الحج: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ بعد قوله: ﴿وَمَن فِي الأَرْضِ﴾ وهم داخلون فيمن قبلهم؟

والجواب مِن أكثر من وجه:

فقد يكون ذلك من باب عطف الخاص على العام فإن قوله: ﴿مَن فِي الأَرْضِ﴾ لا يخص الناس وحدهم بل قد يكونون من الناس أو من غيرهم من الجن أو عباد الله الآخرين الذين لا نعلمهم.

وعطف الخاص على العام غير عزيز في اللغة، قال تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى﴾ (البقرة: ٢٣٨).

والصلاة الوسطى من الصلوات، وقال: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ (الرحمن: ٦٨)، والنخل والرمان فاكهة.

أو إن السجود الأول بمعنى السجود العام، وهو التسخير والانقياد لله

والخضوع له، وهذا لا يخص الإنسان بل يعم الجميع من عاقل أو غيره، وهو ليس عبادة بالنسبة إلى المكلفين، وإن السجود الثاني سجود طاعة واختيار كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾.

وقد يقوّي هذا الاحتمال أنه ذكر قبل الآية أصنافًا من الناس، مَن يسجد لله سجود طاعة وكثيرًا حق عليه العذاب، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، فالمجوس والذين أشركوا وقسم من الصابئين لا يسجدون لله سجود طاعة واختيار، فقد يكون من بين هؤلاء مَن يعبد النار أو يعبد النجوم أو غير ذلك من المعبودات.

فناسب أن يقول: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾.

❀ ❀ ❀

٥٠ – قال تعالى: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (الحجر: ٢).

سؤال: لِمَ قُرئت (رُبَما) بتخفيف الباء؟

الجواب: إن (ربما) قرئت بالتـخفيف والتـشديد وكلتا القـراءتين سبعـية متواترة.

أما الإجابة عن التخفيف والتشديد فإن التخفيف قد يكون لتخفيف معنى الحرف، وإن التشديد آكـد في معنى الحرف، وذلك نظير نون التوكـيد الثقيلة والخفيفة، فإن الثقيلة آكد من الخفيفة، ونظير (إنّ) الثقيلة والمخففة فإن الثقيلة آكد من المخففة، فـ(ربّ) المثقلة آكد في معنى الحـرف من المخففة فإن تكرار الباء لزيادة المعنى.

و(ربّ) تكون للتكثير كقوله ﷺ: «ألا رُبّ كاسية في الدنيا عارية يوم القيامة»، وتكون للتقليل كقول الشاعر:

ألا ربّ مولود وليس له أب وذي ولـــد لم يلده أبـــوان

إن الرغبـة في الدخول في الإسـلام التي ذكرتهـا الآية تختلف بـحسب المواطن والأشخاص، فـقد تقوى في مواطن وتخفّ في مـواطن، وقد تقوى عند أشخاص وتخـف عند آخرين، فقد قيل: إن ذلك في الـدنيا عندما رأوا الغلبة للمسلمين في بدر[١] أو غيرها.

وفي مثل هذا الموطن يتمنى قسم من الناس أن لو كانوا مسلمين ليحصلوا على غنائم، وتختلف هذه الرغبة باختـلاف الأشخاص، فقد تكون قوية عند أشخاص، وقد تكون خفيفة عند آخرين.

وقيل: إن ذلك يكون في القيامة، ولا شـك أن تلك الرغبة ستكون قوية جدًّا وأنهم كانوا يتمنون أن لو كانوا مسلمين.

(١) انظر روح المعاني (١٤/ ٤).

فالتـمني في أن لو كانوا مـسلمين يختـلف قوة وشدة بحـسب المواطن، وبحسب الأشخاص، فقد يكون قويًا جداً في موطن ما، فذلك المعنى يحققه التشديد، وقد يكون أخف في موطن آخر فذلك ما يحققه التخفيف، فاقتضى ذلك القراءتين كلتيهما.

۞ ۞ ۞

٥١ – قال تعالى في سـورة الحجر: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ﴾ (٤٦)، وقال في سورة ق: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ (٣٤).

سؤال: *لماذا ذكر الأمن في آية الحجـر، فقال: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ﴾ ولم يقل مثل ذلك في آية (ق)؟*

الجواب: هناك ما حسّن ذكـر الأمن في آية الحجر، ذلك أن الآية وردت في سياق قصـة آدم وإبليس وانتهت بإخراج آدم من الجنة، فكان من المناسب أن يؤمّنهم ربنا من ذلك، ومن كل ما يُخـشى منه وأنه لا يصيبـهم ما أصاب أباهم حين كان في الجنة ثم أُخرج منها.

وقوّى هذا المعنى بقوله: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ (٤٨) تمكينًا لهذا المعنى في نفوسهم وإرغامًا لإبليس وزيادة في إغاظته، وهو من لطيف المناسبات.

وليس السـياق في (ق) في مثـل ذلك، وإنما ذكر مجـيء الموت، وفرار الإنسان منه، فـقال: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ (١٩).

فناسب ذكـر الخلود الذي لا موت فيـه والذي هو مطمع الإنسـان وغاية رغبته، فقال: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ فكان كل تعبير في مكانه أنسب.

۞ ۞ ۞

٥٢- قال تعالى في سورة النحل: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٦١).

وقال في سورة الحجر: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ④ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ (٤، ٥).

سؤال: *لماذا ذكر تأخير الأجل في النحل، فقال: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.*

وقدّم سبق الأجل في الحجر، فقال: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾؟

الجواب: قدّم تأخير الأجل في النحل لأكثر من مناسبة:

فقد قال في الآية: ﴿وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فناسب التأخير التأخيرَ؛ ولأن الناس يريدون تأخير الأجل، فقدّم ما يريده الناس وما يسعون إليه؛ ولأنه قال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم﴾ فقد يكون من أسباب الظلم الرغبة في البقاء ومدّ الأجل، فناسب ذلك تأخير الأجل.

وأما تقديم الأجل في الحجر فله سببه أيضًا؛ ذلك أنه قال بعدها: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ⑥ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ⑦ مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ (٦- ٨).

فقد طلبوا إنزال الملائكة، ولو أنزلها إليهم لم يُمهلهم ولم يؤخرهم، كما قال تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ فكأنهم أرادوا استعجال أجلهم بطلبهم هذا، فقال ربنا: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾، فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه.

الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا . . . وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ (٦٥-٦٧). فناسب ذكر الرحمة.

وإنه ذكر قبل الآية الثانية بعد المائة شيئًا من البشرى وذلك من نحو قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٦، ٩٧). فناسب ذكر البشرى، فناسب كل تعبير مكانه.

❀ ❀ ❀

٥٤ – قال تعالى في سورة النحل: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٦٦، ٦٧).

– سؤال: *لماذا عدّ السَّكَر وهو الخمر من جملة النعم؟*

ولماذا ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ مع أن الخمر تذهب بالعقل؟

الجواب:

١ – إن الآية نزلت قبل تحريم الخمر ومع ذلك فهي ليست كما ظن السائل.

٢ – قيل : إن من معاني السَّكَر (الخَلّ). ولكن المعنى المشهور للسكر هو الخمر، ونحن سننظر في النص بحسب المعنى المشهور

٥٣ – قال تعالى في سورة النحل: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٦٤)، فذكر الهدى والرحمة.

وقال فيها أيضًا: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (١٠٢)، فذكر الهدى والبشرى.

وقال في السورة نفسها: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (٨٩).

فذكر الهدى والرحمة والبشرى فجمع الأوصاف كلها، فلِمَ ذاك؟ ولِمَ خَصّ كل موطن بما ذكر فيه من الهدى والرحمة، أو الهدى والبُشرى؟

الجواب: إن ما ذكره في الآية الرابعة والستين من قوله: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ إنما هو غرض واحد من أغراض إنزال الكتاب، فأغراض إنزال الكتاب كثيرة أهمها وأولها عبادة ربهم غير أنه ذكر غرضًا واحدًا وهو تبيين الذي اختلفوا فيه، فذكر الهدى والرحمة.

وكذلك ما ذكره في الآية الثانية بعد المائة وهو قوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فهو غرض من أغراض إنزال الكتاب ولم يذكر الأغراض كلها، فذكر الهدى والبُشرى.

وأما الآية التاسعة والثمانون فقد ذكر فيها أن التنزيل تبيان لكل شيء فلم يترك شيئًا إلا شمله فجمع الأوصاف كلها، فقال: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ﴾ وهو المناسب لقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾.

أما الجواب عن السؤال الآخر وهو أنه لماذا خصّ كل موطن بما ذكره من الهدى والرحمة أو الهدى والبشرى فهو أنه ذكر بعد الآية الرابعة والستين– وهي قوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾– أمورًا من مظاهر الرحمة وذلك من نحو قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا... وَإِنَّ لَكُمْ فِي

٣ – إنه قـسّم مـا يتخـذه الإنسـان من ثمـرات النخـيل والأعناب على قسمين:

السَّكَر ولم يصفه بأنه حسن

والرزق الحسن، فـأخرج السكَر من الرزق الحســن مع أن الآية نزلت قبل تحريم الخمر، وفي هذا لفت للنظر إلى أن الخمر ليست ممدوحة

٤ – إن الآية ليست خطابًا للمؤمنين وإنما هي لعموم الناس فيما يتخذونه من هذه الثمـرات، وهذا أمر واقع فإن الناس يتـخذون من هذه الثمـرات ما ذكر.

٥ – لم تكن الآية في تعـداد النعم وإنما هي في ذكر مـا هو حاصل في واقع الأمر.

٦ – لم يقل في خاتمة الآية (لعلكم تشكرون) لسببين:
السبب الأول: أنها ليست في سياق ذكر النعم.
والآخر: لئلا يشمل الشكر السكَر.

٧ – ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

وكأن في هذا إهابة لـترك السكر لأن السكَر يخامـر العقل ويغطيـه، أما الآية فإنها لمن يعقل لا لمن يُذهب عقلَه السكرُ.

❀ ❀ ❀

٥٥ – قال تعالى في سورة النحل: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (٧٠).

وقال في سورة الحج: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ (٥).

سؤال: *لقد فصلت (لا) عن (كي) في الرسم في آية النحل فكتبت (لكي لا)، ووصلت بها في آية الحج فكتبت (لكيلا) فما السبب؟*

الجواب: إن هذا من شؤون رسم المصحف الذي لا يُقاس عليه مع أنه يجوز وصل (لا) بـ(كي) ويجوز فصلها عنها في الرسم، ومع ذلك فإنه – كما يبدو- أن وصل (لا) بكي وفصلها عنها في رسم المصحف له ارتباط بالناحية البيانية، و الله أعلم.

ذلك أن (من) في قوله: ﴿مِن بَعْدِ عِلْمٍ﴾ ونحوها تفيد ابتداء الغاية، فقوله: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ﴾ يفيد أن عدم العلم موصول بالعلم بلا فاصل أي إن ذلك يكون بعد العلم مباشرة.

وأما قوله: ﴿بَعْدِ عِلْمٍ﴾ فإن ذلك يحتمل أن يكون عدم العلم متصلاً بالعلم كالأول، ويحتمل أن يكون بعده بمدة.

ونظيره قولك: (فوقه) و(من فوقه)، فإن قولك: (فوقه) يحتمل القرب والبعد، وأما (من فوقه) فيفيد الاتصال بما هو تحته، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا﴾ (فصلت: ١٠)، فقال: (من فوقها) أي بلا فاصل.

وقال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ (ق:٦)، فلم يأت بـ(من) لأن الفوقية بعيدة.

ونحوه قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ﴾ (الملك: ١٩)، فإنه لم يأت بـ(من) لأنها كذلك أي إن الفوقية غير متصلة[1].

---

(١) انظر معاني النحو (٢/ ٦٢٠) وما بعدها.

فلما كان عـدم العلم متصلاً بالعلم في آية الحج أي حصل بعـده مباشرة بلا فاصل وصلت (لا) بـ(كي) فرُسمت موصولة بها (لكيلا).

ولما لم يكن كـذلك في آيـة النحل فـصلت (لا) عن (كي) فـرُسـمـتـا مفصولتين (لكي لا).

وهذا الأمر لا يقتـصر على هاتين الآيتين بل حيث وردت (كي) مع (لا) في المصحف رُسمتا بحسب هذا الأمر.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً﴾ (الأحزاب: ٣٧).

ففصلت (لا) عن (كي) في الرسم، وذلك أن الزواج بأزواج الأدعياء إنما يكون بعد الانفصال عن أزواجهن وبعـد انقضاء العدّة ففصلت في الخط (لا) عن (كي) مجانسة لذلك.

في حين رُسمت (لا) موصولة بـ(كي) في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ (الأحزاب: ٥٠)؛ وذلك لأن الاتصـال قائم بأزواجـه وبما ملكت يمينه.

ونحوه قوله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ﴾ (آل عمران: ١٥٣).

إذ وصلت (كي) بـ(لا) وذلك أن قوله: ﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾ معناه أنه جازاكم غمًّا موصولاً بغم، غم الهزيمة وفوات الغنيمة، أو جازاكم غمًّا موصولاً بغم فعلتموه لرسول الله لمَّا عصيتم أمره[١].

فلما كان الغم الثاني موصولاً بالغم الأول وصلت (كي) بـ(لا) مجانسة لوصل الغمين.

في حين رُسمت (كي) مفصولة عن (لا) في قوله تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ (الحشر: ٧).

وذلك أنه لا يريد أن تبقى الأموال دُولة بين الأغنياء لا تخرج عنهم، وإنما أراد أن يشاركهم فيها الآخرون ففصلت (لا) عن (كي) مجانسة لإرادة ألا تبقى الأموال محصورة في فئة معينة. وهذا من لطيف الرسم.

❀ ❀ ❀

٥٦ – قال تعالى في سورة النحل: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٧٩).

وقال في سورة المُلك: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ (١٩).

سؤال: لماذا قال في آية النحل: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ بإسناد الإمساك إلى الله، وقال في آية الملك: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ﴾ بإسناد الإمساك إلى الرحمن؟

(١) انظر تفسير أبي السعود (٢/ ١٠٠).

الجواب: من أوجه :

١ - إن كلمــة (الرحــمن) لم ترد في ســورة النحــل على طولهــا وهي (١٢٨) آية ، ووردت في سورة الملك أربع مرات ، وهي ثلاثون آية .

٢ - ووردت كلمــة (الله) في ســورة النحل (٨٤) أربعًــا وثمــانين مــرة ، ووردت في سورة الملك ثلاث مرات .

٣ - لم يرد إسناد الفعل (سخـر) إلى الرحمن في القـرآن الكريم ، وقد أُسند إلى الله في مـواضع عـدة ، وذلك نحو قـوله تعـالى : ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ (لقمان: ٢٠)، ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ . . .﴾ (الجاثية: ١٢).

فمن حيث الســمة التعبيــرية للسورة والاستعمــال القرآني للفعل (سخر) ناسب كل تعبير موضعه .

٤ - وإن السيــاق في سورة الملك في ذكــر مظاهر الرحمــة ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (١٥).

وقوله : ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (٢٣).

حتـى إنه إذا حذرهم فـإنه يحذرهم بزوال النعم من نحـو قوله تعـالى : ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ (٢١)، وقوله : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ (٣٠).

ومن مظاهر ذلك أنه حين ذكّـرهم بالمكذبين ممن قـبلهم ، قـال : ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ (١٨)، ولم يقل : ﴿فكيف كان عقاب﴾

فذكر الإنكار عليهم ولم يذكر العقـوبة ، كما قال في الرعد مثلاً (الآية ٣٢)، والإنكار أخف من العقوبة .

أما السياق في سورة النحل ففي التوحيد والنعي على الشرك ، وذلك نحو قوله : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٧٤) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ . . . وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ . . .﴾ (٧٣- ٧٧) .

حتى إنه ختم الآية بقوله : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ .

قد تقـول : ولكن قال أيضًا في سيـاق آية النحل قبل هذه الآية : ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٨) .

فأقول : نعم ، ولكنها وردت في سياق التوحيد والنعي على الشرك ثم إنه قال في آية النحل : ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ فأسند ذلك إلى الله .

وقال في الملك : ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ﴾ فأسند ذلك إلى الضـمير (هو) الذي يعود على الرحمن قبله في قوله : ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ﴾ (٢٠)، فأعاد الضميـر على الرحمن فناسب ذكر (الرحمن) في آية الملك ، وذكر (الله) في آية النحل .

٥ - ذكر في آية النحل أن الطير مسخَّرات وهو من باب القهر والتذليل ، وليس من باب الاختـيار فأسند ذلـك إلى الله ، أما في آية الملك ، فقـد قال : إنهن ﴿صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ (الملك:١٩) بإسناد ذلك إلى الطيـر فهـو من باب التمكين للطير ، وهو أنسب بالرحمة .

٦ - ذكر في سورة الملك شيئًا من الراحة للطير وهو قوله: ﴿صَافَّاتٍ﴾ وهو سكون الحركة فناسب ذلك ذكر الرحمة، جاء في «ملاك التأويل» : «إن سورة الملك لما انطوت على ذكر حالين للطائر من صفه جناحيه وقبضهما وهما حالتان يستريح إليهما الطائر. فتارة يصفّ جناحيه كأن لا حركة به، وتارة يقبضهما إلى جنبيه حتى يلزقهما بهما ثم يبسطهما ويقبضهما موالاة بسرعة كما يفعل السابح، فناسب هذا الإنعام منه تعالى ورود اسمه الرحمن.

أما آية النحل فلم يرد فيها ذكر هذه الاستراحة فقيل هنا: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ﴾ وتناسب ذلك وامتنع عكس الوارد بما تبين، والله أعلم»(١).

❀ ❀ ❀

٥٧ - قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ (النحل: ٨١).

سؤال: *لماذا قال: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ ولم يقل: (والبرد)؟*

الجواب: قال بعضهم: استدل بذكر الحر على البرد، فحذف ما يدل عليه، أي: والبرد(٢). وقد يكون اكتفى بقوله سبحانه في أول السورة: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ (النحل: ٥)(٣).

وهناك أمر آخر حسّن عدم ذكر وقاية البرد ههنا ذلك أن المقام في ذكر الحر لا البرد، فإن الإنسان يذهب إلى الظلال ليقي نفسه الحر، ويذهب إلى الجبال في الصيف ليحتمي من الحر، فكان المناسب ذكر الوقاية من الحر.

---

(١) ملاك التأويل (٢/ ٦١٨).

(٢) انظر شرح الأشموني (٣/ ١١٦).

(٣) انظر المغني (٢/ ٥٩١).

وأمـا الوقاية من البـرد فقـد ذكرها في أول السـورة كمـا أشرنا، وقـال بعضهم: إن ذكـر الحر يُغني عن ذكر البرد، فإن القيـاس يكون بذكر درجات الحرارة فإنها قد تتدنى وقد ترتفع.

ولو كان الأمر كما ذكر هؤلاء لما كان داعٍ لذكر البرد أصلاً.

❀ ❀ ❀

٥٨ – قال تـعالى في سـورة الإسراء: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ (٤٩، ٩٨).

وقال في سورة (المؤمنون): ﴿قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ (٨٢).

وقال في سورة الصافات: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ (٥٣).

سؤال: *قال في آيتي الإسراء: ﴿أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا﴾، وقال في آية (المؤمنون) وآيات أخرى: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ فما الفرق؟*

الجواب: إن التراب والعظام أدلّ على البلى من العظام والرفات ذلك أن (الرفات) هو الفتات والحُطام من كل شيء، يقال: (رفت الشيء كسره ودقه)[1]. فإذا بلي الرفات أصبح ترابًا.

فبعث التراب والعظام أبعد في عقول المنكرين وأغرب من بعث العظام والرفات، وهو أدعى للعجب والإنكار، وهذا يتضح من السياق الذي يرد فيه كل من التعبيرين.

ففي سياق آيتي الإسراء: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ لم يذكر من قولهم غير هاتين الآيتين في الإنكار، فلم يقولوا بعدهما ولا قبلهما شيئًا يتعلق بإنكار البعث أو العجب منه.

وأما إذا ذكر التراب والعظام فإنه يذكر من إنكارهم واستبعادهم للبعث ما لم يذكره في العظام والرفات.

من ذلك مثلاً ما جاء في سورة «المؤمنون»، وهو قوله: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ

---

(١) يُنظر لسان العرب (رفت).

هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٣٥- ٣٨).

فأنت ترى من العجب والاستبعاد ما هو ظاهر مما لم يذكر نحوه في آيتي الإسراء، ونحو ذلك قوله في السورة نفسها: ﴿قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ (٨٢، ٨٣).

ونحوه ما جاء في سورة الصافات: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ (٥١- ٥٣).

ونحـوه ما جاء فـي سورة الواقـعة: ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ﴾ (٤٧، ٤٨).

فيضيفون إلى عجبهم وإنكارهم أن يُبعثوا مع آبائهم الأولين.

فكيف يبعث آباؤهم الأولون مـعهم وقد أصابهم من البلى مـا أصابهم؟ وهذا شأن كل ما ذكر فيه التراب والعظام.

ويدلك على هذا أيضًـا أنه حيث ذكـر التراب والعظام أضـافوا إلى ذلك ذكر الموت فيـقولون: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ وذلك للزيادة في العجب والاستـبعاد. فالميت لا يحـيا وإن كان حـديث الموت، فكيف إذا أصبح ترابًا وعظامًا؟!

ولم يذكر مثل ذلك مع العظام والرفات، فذكرُ الموت مع التراب والعظام فيه جانبان:

جانب الزيادة فـي العجب والاستـبعاد، وجـانب الإفاضـة والتوسع في دواعي الاستبـعاد والإنكار، مما يدعو إلى الإفاضـة في ذكر الإنكار والعجب بخلاف ذكر العظام والرفات وعدم ذكـر الموت فإنه أوجزُ في الكلام، وأوجز في ذكر العجب والاستبعاد.

٥٩ – قال تعالى في سورة مريم: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ (٤٥).

سؤال: *لماذا قال: ﴿أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ﴾ وكان الأنسب فيما يبدو أن يقال: عذابٌ من الجبار أو المنتقم ونحو ذلك؟*

الجواب:

١ – لقد قال قبل هذه الآية: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ (٤٤) فذكر اسم الرحمن.

٢ – إن اسم الرحمن تكرر في هذه السورة (١٦) ست عشرة مرة، وهي أكثر سورة في القرآن تردد فيها هذا الاسم.

٣ – إن جو السورة يشيع فيه الرحمة من أولها إلى آخرها فهي تبدأ بالرحمة: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ (٢).

وتنتهي بالرحمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ (٩٦).

ويفيض جوها بالرحمة: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ (٢١).

﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ (٥٠).

٤ – ثم إن إبراهيم قال بعد ذلك لأبيه: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ (٤٧).

فلا يحسن أن يقول: أستغفر لك الجبار أو المنتقم ونحو ذلك؛ لأن المغفرة تُطلب من الرحمن. فناسب ذكر (الرحمن) من كل وجه.

٦٠ - قال تعالى في سورة مريم: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١) لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلاَّ سَلامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ (٦١- ٦٣).

سؤال: *في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾.*

١ - *لماذا جاء بهذا التعبير ولم يقل مثلاً: (إن وعد الرحمن كان ماتيًا) أو: (إن الرحمن كان وعده مأتيًا)؟*

٢ - *لماذا قال: (مأتيًا) ولم يقل: (آتيًا)؟*

الجواب:

١ - الجواب عن السؤال الأول من أوجه:

أ - إن الهاء في (إنه) يحتمل أن تعود على الرحمن، ويحتمل أن تكون ضمير الشأن، وهو -أي ضمير الشأن- يفيد تفخيم الوعد وتعظيمه.

ب - لو قال: (إن الرحمن كان وعده مأتيًّا) لفات تفخيم الوعد وتعظيمه مع أن الوعد له شأن كبير وظاهر في السياق.

ج - ولو قال: (إن وعد الرحمن كان مأتيًّا) لفات التفخيم أي تفخيم الوعد من ناحية، ومن ناحية أخرى يكون الإخبار عن الوعد لا عن الرحمن، مع أن الكلام على الرحمن أيضًا كما هو على الوعد، فقد ذكر أن الرحمن وعد عباده، وأن وعده مأتيٌّ، وأنه يورث الجنة لعباده الأتقياء فقال: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ (مريم: ٦٣).

وعلى هذا فقد ذكر الرحمن، وأعاد عليه الضمير أربع مرات في الأقل.

الضمير في ﴿عِبَادَهُ﴾، والضمير في ﴿وَعْدُهُ﴾، والضمير المستتر في ﴿نُورِثُ﴾، والضمير في ﴿عِبَادِنَا﴾، مما يدل على أهميته في السياق.

د - في التعبير الذي جاء في الآية تفخيم وتعظيم للرحمن وللوعد كليهما وكل منهما له أهميته في السياق كما هو ظاهر ولو قال أي تعبير آخر لم يجمع المعنيين معًا.

٢ - أما بالنسبة إلى السؤال الثاني فإن قوله: ﴿مَأْتِيًّا﴾ هو المناسب من أكثر من وجه.

فإن المقصود بالوعد في الآية إنما هو الجنة، قال تعالى: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾ وهم يأتونها[1]. قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ (الزمر: ٧٣)، فهي مأتية.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن هذا التعبير يُفيد قوة الوعد، وأنه ناجز لا محالة فنحن نأتيه وهو يأتينا، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ (آل عمران: ١٥٤)، أي: يمضون إلى قدر الله الذي قدَّره عليهم.

وقال: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ (النساء: ٧٨) أي: يأتيهم، فالقدر يأتي ويؤتى كما قال الشاعر:

فهنّ المنايا أيّ وادٍ سلكته ... عليها طريقي أو عليّ طريقها

وذلك أدلّ على إنجاز الوعد لأنه آتٍ ومأتيٌّ.

هذا مع أنه قيل أيضًا: إن (مأتي) هنا بمعنى اسم الفاعل، أي آت[2]؛ كما قيل في جملة من أسماء المفعول نحو: (حجابًا مستورًا).

والأولى عدم إخراج الصيغة عن الدلالة المشهورة لها، ما دام يمكن حملها عليها.

(١) انظر البحر المحيط (٧/ ٢٧٩).

(٢) انظر البحر المحيط (٧/ ٢٧٩)، وانظر شرح الرضي على الكافية (٣/ ٤١٥).

٦١ - قال تعالى في سورة طه: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ (٣٨ - ٤٠).

وقال في سورة القصص: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٧ - ١٣).

سؤال: *لماذا قال في سورة طه: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ﴾، وقال في سورة القصص: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾؟*

الجواب:

١ - الكلام في القصص مبني على الجمع، وفي طه على الإفراد.

فقد قال في القصص: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾، وقال في طه: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾، فقوله في القصص: ﴿آلُ فِرْعَوْنَ﴾، وقوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾ جمع بخلاف ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾، فكان قوله: ﴿أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ﴾ أنسب بالجمع، وقوله: ﴿مَن يَكْفُلُهُ﴾ أنسب بالمفرد.

٢ – قال في القصص: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾، وامرأة الرجل أهله في اللغة(١) والقرآن. قال تعالى في امرأة سيدنا إبراهيم بعد أن قالت: ﴿يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ (هود: ٧٢-٧٣).

وقالت امرأة العزيز تكلّم زوجها بخصوص سيدنا يوسف: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ (يوسف: ٢٥).

وامرأة فرعون أهل بيته فناسب أن تدلّ أخته أهل بيت فرعون على أهل بيت يكفلونه، وليس في طه مثل ذلك.

٣ – قال تعالى في القصص: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾ والراجح عند علماء اللغة أن أصل كلمة (آل) هو (أهل) أبدلت الهاء همزة ثم ألفًا لاجتماع همزتين الأولى مفتوحة والثانية ساكنة، فإذا صغرت (آل) قيل: (أهيل)(٢).

فناسب ذكر الآل ذكر (أهل بيت) في القصص.

فآل فرعون هم أهله وخاصته فكان المناسب القول: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ﴾، وليس في طه مثل ذلك.

٤ – إن هذا الجانب من القصة في سورة القصص أطول مما في طه كما هو واضح، فهي في طه ثلاث آيات، وفي القصص سبع آيات، وقوله: ﴿أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ أطول من قوله: ﴿عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ﴾، فناسبَ الإيجازُ الإيجازَ، والتبسطُ التبسطَ.

---

(١) انظر لسان العرب (أهل). (٢) انظر لسان العرب (أهل).

٥ - هذا ومن جهة أخرى أن كلمة (أهل) وردت في القصص أكثر مما في طه .

وأن كلمة (من) وردت في طه أكثر مما في القصص .

فقد وردت كلمة (أهل) في القصص سبع مرات ، وفي طه أربع مرات ، وأن كلمة (من) وردت في طه (٢٤) أربعًا وعشرين مرة ، ووردت في القصص (٢٠) عشرين مرة ، فناسب كل تعبير موضعه من أكثر من وجه .

❀ ❀ ❀

٦٢ - قال تعالى في سورة طه : ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ (٧٧) .

وقال في الشعراء : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ (٥٢) .

وقال في سورة الدخان : ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٢٣) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ (٢٣، ٢٤) .

سؤال: *لماذا قال في آية الدخان : ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا﴾ فذكر الليل ، ولم يقل مثل ذلك في آيتي الشعراء وطه ؟*

الجواب: إن الإسراء لا يكون إلا في الليل سواء ذكر الليل أم لم يذكره ، فالليل هنا هو ظرف مؤكد ، ولما أمر ربنا موسى بالإسراء في آيتي الشعراء وطه علم أن ذلك إنما هو في الليل .

وأما ذكر الليل في الدخان وعدم ذكره في الآيتين الأخريين فلأكثر من سبب :

منهـا : أنه ذكـــر في الدخـان من هذا الأمـر مـا لم يـذكـره في الآيتين الأخريين ، وبيّن فيها ما لم يُبينه في الموطنين الآخرين ، فقد ذكر في الدخان :

١ - أنهم متبعون .

٢ - وأن جند فرعون مغرقون .

ولم يذكر هذين الأمـرين في الموضعين الآخرين ، وإنما ذكر أحـدهما في كل مـوضع ، فقـد ذكر في الشـعراء أنهم مـتـبعـون ، ولم يقل له إنهم جند مغرقـون ، وإنما ذكر أنه لما تراءى الجمـعان قال أصحاب مـوسى إنّا لمدركون ، فنفى موسى ذلك بقوله : ﴿كَلاَّ إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (الشعراء: ٦٢) .

ولم يقل له في طه إنهم مـتبـعون ، وإنما ذكـر له النجاة ، فـقد قـال له : ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لاَّ تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَىٰ﴾ (طه: ٧٧) ثم إنه ذكر بعد ذلك ما حصل .

ففصّل وبيّن في الدخان في تبليغه لموسى ما لم يُفصله ويُبينه في الموطنين الآخرين .

ومنهـا : أن قوله : ﴿لَيْلاً﴾ ليس لمطلق التـوكيـد وإنما هو يدل على ليلة بعينها ، فقولك : (جئت ليلاً) تريد فيه ليل ليلتك ، أو ليلة بعينها[١] .

ولو قلت : (جئت في ليل) لم يتعين ذاك .

فقوله : ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً﴾ يريد فيه تعيين الليلة التي أمر بالإسراء فيها .

وأما قوله : ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي﴾ فإنه أمر بالإســراء من دون تعيين الوقت ،

---

(١) انظر سيـبويه (١/ ١١٥)، الأصول (١/ ٢٢٠)، الأمالي الشـجرية (٢/ ٢٥١)، وانظر مـعاني النحو (٢/ ٦١٢- ٦١٣).

فكان في الدخان: تعيين وقت الإسراء، وبيان أنهم متبعون، وأن جند فرعون جند مغرقون؛ فناسب تبيين الوقت ما ذكره من التبيين في التبليغ.

وناسب عدم التبيين للوقت تحديداً عدم التبيين لشيء مما سيقع في الموضعين الآخرين.

ومما زاد ذلك حُسنًا في الدخان إضافة إلى ما ذكرنا أنه قال في أول السورة: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٣-٦).

فذكر الليلة التي يُفرق فيها كل أمر حكيم، فناسب ذلك ذكر الليل الذي فرّق فيها بين جند فرعون وأصحاب موسى فأغرق فرعون وجنده، ونجّى موسى ومَن معه.

وهو من لطيف التناسب يراعيه القرآن فيما تحسن فيه المراعاة.

❀ ❀ ❀

٦٣ – قال تعالى في سورة طه: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (١٣٠، ١٣١).

وقال في سورة ق: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ (٣٩، ٤٠).

سؤال:

١ – لماذا قال في آية (طه): ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾، وقال في آية (ق): ﴿وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾؟

٢ - ولماذا قال في طه: ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾، بإطلاق التسبيح، وقال في ق: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ بتخصيص التسبيح لله وذلك بذكر ضميره؟

الجواب:

١ - بالنسبة إلى السؤال الأول فإن قوله في آية طه: ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ تنصيص على غروب الشمس، وذلك بذكر الضمير الذي يعود عليها.

وأما قوله في ق: ﴿وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ فإنه يدل على غروب الشمس بدلالة السياق، قيل على تقدير ضمير أو على قول مَن يرى أن (أل) عوض عن الضمير، وذكروا منه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (النازعات: ٤١) أي: مأواه أو المأوى له[١].

فكأنه أخرج (الغروب) في (ق) مخرج العموم، وإن أريد به الخصوص.

وكل تعبير مناسب للسياق الذي ورد فيه.

فإن السياق في (طه) أُخرج مخرج الخصوص، كما أنه ألصق بالشمس، أما السياق في (ق) فقد أُخرج مخرج العموم وهو أبعد عن الشمس.

أما من حيث العموم في (ق) فمن ذلك ما ذكرناه في قوله: ﴿وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ من أنه أخرج مخرج العموم وإن كان الكلام على الخصوص تقديراً.

ومنه أنه قال في طه: ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ﴾ وقال في ق: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ﴾.

وآناء الليل ساعاته، ولاشك أن (الليل) أعم من ساعات الليل، فكان الكلام في (ق) أُخرج مخرج العموم.

وأما من حيث إن السياق في طه ألصق بالشمس فإنه قال فيها:

---

(١) الأشموني (١/ ١٩٥- ١٩٦).

﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾، وقوله: ﴿أَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ له علاقة بالشمس شروقها وزوالها عند الظهيرة وغروبها، ويكفي ذكر (النهار) الذي آيته الشمس.

وأما في ق فلم يذكر أمرًا يتعلق بالشمس ولا بالنهار، فقد قال: ﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ وهذا ليس له علاقة بالشمس ولا بالنهار.

فكان ذكر ضمير الشمس في (طه) أنسب مع السياق من ناحيتين:

ناحية الخصوص، وناحية ماله علاقة بالشمس وهو أطراف النهار.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن السياق في طه بعد ذلك عن الدنيا والحياة الدنيا والرزق، فقد قال بعد الآية: ﴿لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (١٣١).

وأما السياق في (ق) بعد الآية ففي الآخرة، فقد قال بعد الآية: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ (٤١- ٤٤).

فناسب فيها ذكر الغروب على العموم وهو غروب الشمس وذهابها وزوالها وغروب كل شيء مما يتعلق بأمر الدنيا من الكواكب والنجوم والشمس والقمر، فإخراجه مخرج العموم أنسب في (ق).

هذا وإن ذكر الآخرة بعد قوله: ﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ من لطيف المناسبات، ذلك أن الآخرة ستكون أدبار السجود حيث لا يكون في الدنيا رجل يقول: (لا إله إلا الله) وليس فيها رجل ساجد.

فكان كل تعبير في مكانه هو المناسب من كل ناحية، إضافة إلى فاصلة الآية

٢ - وأمـا الجـواب عن السـؤال الثـاني فـإنه أمَـره في (ق) بنوعين من التسبيح:

١ - التسبيح بحمد ربه.

٢ - تسبـيح الله نفسـه وذلك أنه قال: ﴿فَسَبِّحْهُ﴾ أي: فسبّح الله، أو فسبح ربك، كما قال: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ (الأحزاب: ٤١، ٤٢)، ذلك أنه قـال فيـها: ﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ ومعلوم أنه بعد السـجود يُسَنّ للمصلي أن يُسبح الله فـيقول: (سبـحان الله) ثلاثًا وثلاثين مرة.

فناسب تسبيح الله أدبار السجود.

ولما لم يرد في (طه) نحو ذلك أطلق التسـبيح فقال: ﴿فَسَبِّحْ﴾ وحذف المتعلق ليشمل عموم التسبيح، والله أعلم.

❀ ❀ ❀

٦٤- قـال تعالى في سـورة الحج: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (٢٧).

سؤال:

١ - *لماذا قال: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ فذكر وصف الضمور؟*

٢ - *ولماذا وصف الفج بالعمق ولم يصفه بالبعد مع أن معنى (عميق) هنا (بعيد)؟*

الجواب:

١ - أما بالنسبة إلى السؤال الأول فإن معنى الضامر هو المهزول الضعيف المنهوك من السفر، وذكرُ هذا الوصف هنا مناسب من أكثر من جهة

منها: أنها تأتي من كل فج عميق أي بعيد، والبعد هو الذي يُضمر الإبل والمطايا، ولم يقل: (من كل فج) فحسب لأن ذلك يشمل البعيد والقريب فلا يناسب ذكر الضمور.

ومنهـا أنه قال: ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ﴾، وكلمة (فج) في الأصل هو الطريق في الجبل، وهو أنسب بالضمور من كلمة الطريق أو السـبيل أو نحوه؛ لأن السير في الجبل أدعى إلى التعب والمَشقة والضُّمور.

٢ - وأما اختيار كلمة (عميق) على (بعيد) فهو أنسب هنا من أكثر من جهة أيضًا.

منها: أن اختيار كلمة (عميق) على (بعيد) أنسب مع ذكر الضمور، ذلك أن العمق نقيـض العلو والارتفاع، وأن الصعود في السـير أشق وأصعب من السير في الطريق المستوي، فهو يضمر المطايا وينهكها.

ومنها: أن الحج رفـعة وعلو في المنزلة عند الله؛ لأنه مـدعاة إلى مغـفرة الذنوب، فالسالك في طريق الحج آخذ بالارتفاع، وسالك سبيل الصعود فناسب الوصف بالعمق من أكثر من جهة، والله أعلم.

٦٥ – قال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (النور: ٣٥).

سؤال: *لماذا أخبر الله عن نفسه بأنه نور، ولم يُخبر بأنه ضياء، مع أن الضياء أقوى من النور، بدليل قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً﴾ (يونس: ٥)؟*

الجواب: ليس صحيحًا ما ذُكر من أن الضياء أقوى من النور؛ لأن الضياء هو نور غير أن النور أعم من الضياء، فكل ضياء هو نور كما هو مُقرر في اللغة، إن الضياء حالة من حالات النور وهو أخص منه، وذلك أن النور درجات بعضها أقوى من بعض، فإذا كان في حالة قوية فهو ضياء[1]. فالضياء نور وليس غيره.

وقيل: هما مترادفان، جاء في «لسان العرب»: «النور: الضياء، والنور: ضد الظلمة»[2]. وجاء في «تاج العروس»: «النُّور بالضم الضوء أيًّا كان أو شعاعه وسطوعه ...

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً﴾ وتخصيص الشمس بالضوء والقمر بالنور من حيث إن الضوء أخص من النور»[3].

وجاء في «المفردات» للراغب الأصفهاني: «النور الضوء المنتشر الذي يُعين على الإبصار»[4].

وبهذا يتضح أن النور أعم من الضياء، وأن الضياء قسم منه أو حالة من حالاته.

---

(١) انظر تفسير الرازي (٦/ ٢٠٨ – ٢٠٩).

(٢) لسان العرب (نور)، وانظر المصباح المنير (النور).

(٣) تاج العروس (نور).

(٤) المفردات (النور).

وقد قابل ربنا الظلمات بالنور، قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ (الأنعام: ١).

وقال: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (البقرة: ٢٥٧).

وسمى الهدى نوراً والضلال ظلمات، قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (إبراهيم: ١).

وقال: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ (الأنعام: ١٢٢).

وسمى القرآن نوراً، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ (النساء: ١٧٤).

وقال: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ (التغابن: ٨).

فسمّى الله نفسه نوراً لا ضياء لأن الضياء حالة من حالات النور، وهناك حالات من حالات النور لا نعلمها، الله يعلمها هي أعلى من الضياء، وحالات من النور غير الضياء، فلا يصح قصر المطلق على جزئية.

فالله هو النور المطلق، «والنور المطلق هو الله سبحانه»[1]. والله أعلم.

❀ ❀ ❀

(١) تفسير الرازي (٨/ ٣٨٣).

٦٦ – قال تعالى في سـورة الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ (٤٨، ٤٩).

وقال في سورة المائدة: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ﴾ (٤٤).

وقال في سـورة الأنعام: ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ﴾ (٩١).

سؤال: ***لماذا وصف التوراة بأنها (ضيـاء) في آية الأنبياء، ووصفهـا بأنها (نور) في آيتي المائدة والأنعام؟***

الجواب: إن النور أعمّ من الضياء، والضـياء حالة من حالات النور وهو أخصّ منه كما ذكرنا في النقطة السابقة.

وقد ذكر في آية الأنبياء أنه: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾، وهم أخصّ ممن ذُكر في الآيتين الأخريين.

فقـد قال في آية المائدة: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ أي: لليهود، والمتقون أخص من اليهود وهم جزء منهم.

وقال في آيـة الأنعام: ﴿الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ (الأنعام: ٩١) فجـعله للناس، وهم أعم من المتـقين المذكورين في آية الأنبـياء، والمتقون جزء منهم.

فـجـعل النور الذي هو أعم مـن الضـياء لـلذين هم أعم وهم اليـهـود والناس، وجعل الضيـاء الذي هو أخصّ للذين هم أخصّ وهم المتقون الذين يخشون ربهم وهم من الساعة مشفقون

فناسب العموم العموم، والخصوص الخصوص.

ومن ناحية أخرى أن الضياء إنما هو الساطع من النور أو هو التام منه(١).

وإن المتقين إنما هم جماعة ساطعة من بين عموم المؤمنين أو الناس، وحالهم أتم وأكمل، فناسب بين سطوع المتقين وسطوع النور وهو الضياء، فالمتقون من بين عموم المؤمنين كالضياء من النور.

جاء في «الكشاف» في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (البقرة: ١٧).

«النار جوهر لطيف مضيء حار محرق، والنور ضوؤها وضوء كل نيّر وهو نقيض الظلمة ... والإضاءة فرط الإنارة، ومصداق ذلك قوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ ...

فإن قلت: هلا قيل: (ذهب الله بضوئهم) لقوله: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ﴾؟

قلت: ذكر النور أبلغ لأن الضوء فيه دلالة على الزيادة فلو قيل: (ذهب الله بضوئهم) لأوهم الذهاب بالزيادة وبقاء ما يسمى نوراً، والغرض إزالة النور عنهم رأساً وطمسه أصلاً. ألا ترى كيف ذكر عقيبه: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾، والظلمة عبارة عن عدم النور وانطماسه، وكيف جمعها وكيف نكّرها وكيف أتبعها ما يدل على أنها ظلمة مبهمة لا يتراءى فيها شبحان، وهو قوله: ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾»(٢).

❀ ❀ ❀

(١) انظر تفسير الرازي (٦/ ٢٠٩).

(٢) الكشاف (١/ ١٥١- ١٥٤).

٦٧ – قال تعالى في سورة العنكبوت في سيدنا نوح عليه السلام: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٥).

وفي آيات أخرى سماها الفلك فقال: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ (الأعراف: ٦٤).

وقال: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ (الشعراء: ١١٩)، **فما *السبب؟***

الجواب: السفينة هي الفلك غير أن العرب استعملت السفينة خاصة بالمفردة المؤنثة.

أما الفلك فقد استعملتها عامة، فقد استعملتها للواحد والاثنين والجمع، واستعملتها مذكرة ومؤنثة، فتقول للواحد: (فُلك) تؤنثه وتذكّره، وتقول للجمع أيضًا (فُلك)، وكذا استعمله القرآن.

قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ (المؤمنون: ٢٧)، فجعلها مفردة مؤنثة، فقد قال: ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا﴾.

وقال: ﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ...﴾ وقال: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ (هود: ٤٢)، وهي في ذلك كله مؤنثة.

وقال: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ (الشعراء: ١١٩).

وقال: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ (الصافات: ١٣٩، ١٤٠).

فقال: ﴿الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ فجعلها مفردة مُذكرة

زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل﴾ (هود: ٤٠)، وقوله: ﴿فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾ (المؤمنون: ٢٧).

فنقول: إن الآيتين لا تدلان على الملء فهو لم يقل إنهـا مملوءة، فقد أمره في آية هود أن يحـمل من كل زوجين اثنين وأهله ومَن آمن، وقد ذكـر أنهم قلة، فقال: ﴿وما آمن معه إلا قليل﴾.

ومما يدل على أن في السفينة متـسعًا، أنه نادى ابنه فقال: ﴿يا بني اركب معنا﴾ (هود: ٤٢).

وأما آية «المؤمنون» فقد ذكر أنه أمـره أن يسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهله، ولم يذكـر مَن آمن، فلم يصـرّح بالملء بخلاف التـصريح بالشـحن، وقيل: إن تـأنيثهـا وتذكيـرها كأنه «يذهب بهـا إذا كانت واحـدة إلى المركب فيذكّر، وإلى السفينة فيؤنث»[(١)].

ثم نأتي إلى السفينة والفلك في السؤال فنقول:

إن السفينة من السَّفْن وهو القَشْر، ومعنى (سفن الشيء) قشره، وسميت السفينة لأنها تسفن وجه الماء أي تقشره[(٢)].

وأمـا الفُلك فكأنهـا سُمـيت بذلك لأنهـا تركب الفَلَك، ومـن معـاني (الفَلَك) بفتح الفاء واللام مـوج البحر إذا ماج واضطرب، ومن مـعانيه الماء الذي حركتـه الريح، وفَلَك البحر موجه المسـتدير المتردد[(٣)]. فكأنها سُميت بذلك لما كانت تركب الموج وما ذكرناه في معنى الفلك.

(١) لسـان العرب (فلك).

(٢) لسان العرب (سفن).

(٣) انظر لسان العرب (فلك).

وقد بيّنا أن (الفُلك) أعم من السفينة في الاستعمال اللغوي لأنه يذكّر ويؤنث، ويكون للواحد وغيره بخلاف السفينة، فإنها مفردة مؤنثة فهي مختصة.

وقد استعمل القرآن السفينة في مقام التخصيص فقط مناسبة لمعناها اللغوي بخلاف الفلك فقد استعملها عامة وخاصة.

١ - فقد استعمل السفينة في المملوكة دون غيرها، فقد قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ (الكهف: ٧١)، وهذه السفينة كانت لمساكين يعملون في البحر كما جاء في السورة (الكهف: ٧٩).

ثم قال: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ (الكهف: ٧٩)، أي يأخذها غصبًا من مالكها.

فالسفينة في القرآن لم تُستعمل إلا في سفينة نوح، وهي المذكورة في آية العنكبوت، وفي هذه السفن المذكورة في سورة الكهف وهي مملوكة لمساكين أو لآخرين في ذلك العهد.

وهي على أية حال خاصة بمالك أو خاصة بعهد معين هو عهد الملك المغتصب أو هي فلك نوح.

وأما الفلك فهي قد تكون خاصة كما في فلك نوح، وقد تكون مطلقة تصلح لجميع الأزمنة، وذلك نحو قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾ (لقمان: ٣١).

وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ (الجاثية: ١٢).

وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ﴾ (الروم: ٤٦).

٢ - ومن استعـمالها مختصة أنه ذكر معها الأصحاب في قصة نوح، فقال: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ وكلمة الأصحاب قد تأتي بمعنى المالكين، وإن لم تكن كذلك في قصة نوح، وإنما هي على تقدير (في) أي وأصحابه في السفينة، مثل: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ﴾ أو تكون الإضافة لأدنى ملابسة، فناسب ذكر الأصحاب استعمالها مملوكة في السياقات الأخرى، فكانت في كل استعمالاتها مملوكة أو كالمملوكة.

٣ - ومن لطيف الاستعمال أنه مع ذكر السفينة التي هي خاصة ذكر المدة التي لبثها سيدنا نوح وخصصها فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (العنكبوت: ١٤)، فذكره وخصصه مع ذكر السفينة التي هي أخص من الفلك.

٤ - ثم إنه قال في السفينة المذكورة في آية العنكبوت، وهي سفينة نوح: ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي: جعل السفينة هذه آية، ولو ذكر مكانها الفلك لم يدل نصًّا على أن المقصود به الفلك الذي صنعه نوح، بل يحتمل أن المقصود به عموم الفلك الذي يركبه الناس، وقد ذكره ربنا، وذكر أنه آية من آياته في أكثر من موضع فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ١٦٤).

وقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ﴾ (الروم: ٤٦) فذكر أنه من آياته.

وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ﴾ (لقمان: ٣١).

وقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الجاثية: ١٢).

فلو ذكر الفلك أيضًا في آية العنكبوت لاحتمل أن المقصود نحو ما ذكره في آيات أخرى في الفلك، ولم ينص على أنه سفينة نوح.

فاستعمل السفينة التي هي -خاصة في اللغة- خاصة بسفينة نوح أو خاصة بمالكين أو خاصة بعهد معين، وخصص معها مدة لبث نوح وخصصها بأنها آية للعالمين.

فما أجلّ هذا التناسب وألطفه!

❀ ❀ ❀

٦٨ - قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ (العنكبوت: ٢٠).

وقال: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ (الملك: ١٥).

سؤال: *لماذا قال في آية العنكبوت ﴿سِيرُوا﴾، وقال في سورة الملك ﴿فَامْشُوا﴾، وما الفرق بين السير والمشي؟*

الجواب: يقال (سار القوم) «إذا امتد بهم السير في جهة ما توجهوا إليها»[1]، أما المشي فلانتقال الخطى وإن كانت قليلة.

والسير قد يكون للسفر وللتجارة والضرب في الأرض، وللاعتبار والاتعاظ ولغير ذلك على أن يكون ممتدًّا.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ (القصص: ٢٩)، وهو سير ممتد للعودة إلى مصر.

(١) لسان العرب (سير).

وقال: ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ (سبأ: ١٨)، وهو سير متطاول ممتد يستغرق ليالي وأيامًا كما ذكر ربنا.

وقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ (الحج: ٤٦)، وهو سير للعبرة.

ونحوه قوله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ (العنكبوت: ٢٠).

أما المشي فيكون على الأرجل وإن كان قليلاً، قال تعالى: ﴿وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا﴾ (لقمان: ١٨).

وقال: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ (القصص: ٢٥).

وقال: ﴿إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾ (الفرقان: ٢٠).

❀ ❀ ❀

٦٩ – قال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ (٢٢).

وقال في سورة الشورى: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ (٣١).

سؤال: *لماذا قال في سورة العنكبوت: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾ فذكر السماء إضافة إلى الأرض.*

وقال في الشورى: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ﴾ فذكر الأرض ولم يذكر السماء؟

الجواب: إن التهديد والتوعد في العنكبوت أشد وأعمّ، وذلك أن السياق في العنكبوت يختلف عمّا في الشورى من أكثر من جهة منها:

١- أن الكلام في العنكبوت إنما هو على الكفار وتهديدهم وتوعدهم وذلك من مثل قوله: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ (١٧).

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٣).

وأما الكلام في الشورى فأكثره في المؤمنين أو هو عام، وذلك من مثل قوله: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (٢٣).

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾(٢٥).

وقوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ﴾ (٢٧).

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ (٢٨) فناسب أن يكون التهديد في العنكبوت أشد.

٢- إن جو سورة العنكبوت إنما هو في ذكر الأمم الكافرة وموقفهم من رسلهم وعقوباتهم، فقد ذكر قوم نوح وقوم إبراهيم وقوم لوط وذكر مدين وعادًا وثمود وقارون وفرعون وهامان، فناسب ذلك شدة التهديد والتحذير فيها، ولم يذكر شيئًا من ذلك في الشورى.

٣- قال تعالى قبل آية العنكبوت هذه: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٠).

وقال في الشورى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ (٢٩).

فقال في آية العنكبوت : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وقال في الشورى : ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ .

فذكر قدرته في العنكبوت بما هو أعمّ وأشمل فقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وذكر شيئًا من مظاهر قدرته في الشورى فقال : ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ فذكر جمع مَن في السماوات والأرض .

وهذا ولاشك جزء من قدرته فهو يدخل في قوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

فذكر في العنكبوت ما هو أعمّ مما في الشورى ، وهو السماء والأرض ، وذكر جزءًا من ذلك في الشورى ، وهو الأرض ، فناسب العموم العموم ، والتخصيص التخصيص .

٤ – ذكر في الشورى من مظاهر مغفرته وعفوه ولطفه ما لم يذكره في العنكبوت ، فقد قال في الشورى : ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ (٥)، وهذا من رحمة الله بمن في الأرض ، فقد جعل الملائكة يستغفرون لهم .

وقال : ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٥).

وقال : ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ (١٩)، وقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (٢٣)، وقال : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ (٢٥)، وقال : ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (٢٨)، وقال : ﴿وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ (٣٠)، وقال أيضًا : ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ (٣٤)، ولم يرد في العنكبوت ذكر للمغفرة أو العفو ، وإنما ذكر التهديد والتوعد من مثل قوله : ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (٢)، وقوله : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾(٤)، وقوله :

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥٣)، وقوله: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٦٦).

فناسب التوعد الشديد والتهديد ما في العنكبوت.

جاء في «ملاك التأويل»: «للسائل أن يسأل عن زيادة الوارد في سورة العنكبوت، من قوله: ﴿وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ ولم يرد ذلك في سورة الشورى.

والجواب عنه - والله أعلم- أنه لما تقدم قبلها قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾ وهذا من أشد الوعيد، إذ حاصله أنه لا يفوته سبحانه أحد، وأنه لا مهرب منه إلا إليه، ناسب هذا قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ كما قال: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ (البقرة: ١٤٨)، إلى ما ورد من هذا وذلك تناسب بيّن.

ولما لم يرد في سورة الشورى من أولها إلى الآية مثل هذا الوعيد الشديد، ولا كان فيها ما يستدعي هذا التعميم والاستيفاء الوعيدي وردت الآية مناسبة لذلك فقال تعالى: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ ولم يكن التعميم هنا ليناسب، فورد كل على ما يجب والله سبحانه أعلم»[1].

٥ - إن كلمة (الأرض) وردت في الشورى أكثر مما في العنكبوت فقد وردت في العنكبوت خمس مرات، ووردت في الشورى عشر مرات، فناسب الاقتصار على ذكر الأرض في الشورى من هذه الجهة.

٦ - إن كلمة السماء وردت في العنكبوت ثلاث مرات، ولم ترد في الشورى، فناسب ذكر السماء إضافة إلى الأرض في العنكبوت من جهة أخرى، فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه من كل جهة، والله أعلم.

---

(١) ملاك التأويل (٢/ ٧٦٧).

٧٠ - قال تعالى في سـورة العنكبوت: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ (٣٨ - ٤٠).

وقال في سـورة غافر: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ (٢٤).

سؤال: ***لماذا قدّم (قارون) على فرعون وهامان في العنكبوت، وأخّره عنهما في غافر؟***

الجواب: إنه قال عن قوم ثمود إنهم كانوا مستبصرين وكذلك قارون كان مُستبصراً أيضًا؛ لأنه كـان من قوم موسى فـبغى عليـهم كما قـال ربنا عنه (القصص: ٧٦) فناسب ذكره بعـد ثمود، وأما فـرعون وهامـان فلم يذكر ذلك عنهما.

ثم إن تقديم (قارون) في سورة العنكبوت مناسب لما ورد في السورة من بسط الرزق، فقـد قال: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٦٢).

وقارون بُسط له في رزقه قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ (القصص: ٧٦).

وقد ذكر العـقوبات في سورة العنكبـوت مُرتبة بحسب المذكـورين، فقد قال: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾.

فقـوله : ﴿مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ يعني عـادًا ، وقوله : ﴿مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ يعني ثمود ، وقوله : ﴿مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ﴾ يعني قارون ، وقوله : ﴿مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ يعني فرعون .

وأما في سورة غافـر فقد قال : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ والإرسال كان إلى فرعون أولاً .

ثم إن السياق في الكلام على فرعون أولاً فقد قال : ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ . . . وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ . . . قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (٢٦ وما بعدها) وغير ذلك ، فناسب تقديم فرعون في غافر .

ومن ناحية أخرى أن المذكور آخراً في هذين الموضعين لم يرد بشأنه شيء في السورة .

فآخر مَن ذُكـر في العنكبوت (هامان) ولم يرد بشأنه شيء في السورة ، وأما مَن قبله فقد ذكر عقوبته .

وآخر مَن ذُكر في غافر : (قارون) ولم يرد بشأنه شيء في السورة ، وأما (هامان) فقد ورد له ذكر في غافـر ، فقد قال فيه : ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ﴾ (٣٦) .

٧١- قال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ (٢٦، ٢٧).

سؤال: *لماذا قدّم الفريق في قوله: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ وأخّره في قوله: ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾؟*

الجواب: أما تقديم الفريق على ﴿تَقْتُلُونَ﴾ فإنه هو المناسب، ذلك أن هذه من أندر حالات القتل وأغربها، وأنها تستدعي التقديم للاهتمام، ذلك أن المرء يقاتل إما دفاعًا عن نفسه، أو عن أهله وذريته، أو عن ماله، أو عن داره، أو عن أرضه.

إذ إن كل واحد من هذه الأمور يستوجب الدفاع عنه والقتال دونه، فكيف إذا اجتمعت كلها؟

وهؤلاء لم يقاتلوا مع موجب أحوال الدفاع كلها مع أنهم بأيديهم سلاحهم، وقد كانوا في حصونهم، بل نزلوا مستسلمين للقتل ملقين سلاحهم، ولم يدافعوا عن شيء من كل ذلك، وقد كانوا ستمائة مقاتل.

وهذا يُبين مقدار الرعب الذي قُذف في قلوبهم.

فتخيل أن رجلاً يُنادي على رجل في حصنه معه سلاحه، فيقول له: انزل إليّ وألقِ سلاحك فأنا سأقتلك وأسبي أهلك وذريتك وآخذ دارك ومالك وأرضك، أفترى أنه فاعل ذلك وهو مقتول لا محالة؟

فهذا هو حال هؤلاء من بني قريظة.

فاقتضى ذلك تقديم هذا الفريق لغرابة حاله.

أما الفـريق المأسور فلا يستـدعي تقديمه وهي حالة غـير مُستـغربة، ولا تستدعي الاهتمام فإنهم أطفال ونساء وليس فيهم مقاتل.

فلاشك أن أسرهم سهل وميسور فلا يقتضي التقديم.

❀ ❀ ❀

٧٢ – قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ (الأحزاب: ٧٢).

سؤال: *لماذا ذكر الجبال بعد الأرض وهي جزء منها؟*

الجــواب: إن هذا من باب عطـف الخـاص على العـام، وذلـك لعظم خلقها، فهي أعظم ما في الأرض.

وهذا النوع من العطف غـير عـزيز في اللغـة، فإنه يعطف الخـاص على العـام لأهميـة المعطوف، وذلك نحـو قوله تعـالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ﴾ (البقرة: ٢٣٨)، فعطف الصلاة الوسطى على الصلوات وذلك لأهمية الحفاظ على هذه الصلاة.

ونحو قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٩٨)، فعطف جـبريل وميكال وهـما من الملائكة وذلك لعظيم منزلتهما عند الله.

ثم إن الجبال ليـست خاصة بالأرض فهي موجـودة في قسم من الأجرام السماوية، وعلى هذا فإن ذكرها أفاد ما لم يُفده ذكر الأرض، فربما عرض الله الأمانة علـى السماوات والأرض وعلى الجـبال أينمـا كانت سـواء كانت في الأرض أم في غيرها.

ثم إن ذكرها بعـد ذكر الأرض فيـه إشارة إلى أمـر آخر لطيف، ذلك أن

الجبـال إنما هي رواسٍ للأرض لئلا تميد بنا، قـال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ (الأنبياء: ٣١)، ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ (النحل: ١٥).

وهذه الأمانة كالجبال رواسٍ للإنسان تثبته لئلا تميد به الأهواء وتعصف به الشهوات، بل هي تُثبته في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ (إبراهيم: ٢٧)، وهي أدوم من الأرض والجبـال؛ بل هي أدوم من السماوات، فـإن الأرض ستزول والجـبال ستُنسف والسماوات ستُبدل، أما هذه الأمانة فإنها باقية تثبته في الحياة الدنيا، وتُثبته في الآخرة، وتُثبته على الصراط لئلا يسقط في جهنم

فذكر الجبال ههنا بعد ذكر الأرض من لطيف المناسبات

❀ ❀ ❀

٧٣- قال تعالى في الآية السادسة والثلاثين من سورة سبأ: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٦).

وقال في الآية التاسعة والثلاثين من السورة نفسها: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (٣٩).

سؤال:

١ - لماذا قال في الآية السادسة والثلاثين ﴿وَيَقْدِرُ﴾ ولم يقل: (له)، وقال في الآية التاسعة والثلاثين: ﴿وَيَقْدِرُ لَهُ﴾؟

٢ - ولماذا قال في الآية التاسعة والثلاثين: ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ ولم يقل مثل ذلك في الآية السادسة والثلاثين؟

الجواب:

١ - بالنسبة إلى السؤال الأول فقد ذكر ربنا في السورة قسمين من العباد:

قسمًا بسط الله لهم الرزق ولم يقدره لهم.

وقسمًا بسط الله لهم الرزق ثم قدره لهم؛ أي ضيّقه.

فذكر كل آية لمناسبة كل قسم وإليك إيضاح ذلك:

لقد ذكر من الذين بسط لهم الرزق ولم يضيّق عليهم نبي الله داود، ونبيه سليمان، فقد ذكر أن الله آتاهما فضلاً، ولم يُضيق عليهما، فهما ملكان عظيمان في بني إسرائيل، إلى أن توفاهما الله.

ومن الذين بسط لهم رزقهم ولم يقدره لهم المذكورون في قوله : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ (٣٤، ٣٥) .

وهؤلاء ممن بسط لهم الرزق فقد ذكر أنهم مُترفون ، والمُترف مبسوط له في رزقه ، وذكر أنهم قالوا : ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا﴾ ، فهؤلاء ممن بسط لهم في رزقهم ، ولم يذكر أنه ضيقه عليهم ، وقد قال بعد هذه الآية :

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ فذكر أن ربك يبسط الرزق ويقدر ، ولكن لم يذكر أنه يقدر لمن بسط له ، فقد يقدر له أو لغيره .

وقد ذكر في السورة أيضًا قومًا بسط لهم في رزقهم ثم ضيقه عليهم ، وهو ما ذكره عن سبأ فقال : ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ (١٥)، وهذا زمن البسط .

ثم قال : ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ﴾ (١٦، ١٧)، فضيّق عليهم بعد البسط .

فالأولون بسط لهم في رزقهم ولم يقدره لهم .

والآخرون بسط لهم في رزقهم ثم قدره لهم .

فناسبت كل آية قسمًا من المذكورين في السورة .

٢ - وأما ذكر ﴿ مِنْ عِبَادِهِ﴾ في الآية الثانية دون الأولى فقد قيل : إن الآية الأولى في الكافرين ، وإن الآية الثانية في المؤمنين ، وقوله : ﴿ مِنْ عِبَادِهِ﴾ مُشعر بذلك

جاء فـي «البرهان في متشـابه القرآن» أنه: «لم يذكـر مع الأول: (من عباده) لأن المراد بهم الكفار، وذكر مع الثاني لأنهم المؤمنون»(١).

وجاء في «البـحر المحـيط»: «ومعنى ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ أي: يأتي بالخُلف والعوض منه، وكانت لفظة ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ مشعرة بالمؤمنين، وكذلك الخطاب في: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم﴾ يقصد هنا رزق المؤمنين»(٢).

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن خاتمة كل آية من الآيتين تبين مناسبة كل تعبير لما ورد فيه.

فإنه ختم الآية الأولى بالـكلام على الناس، فقال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ والناس عموم.

وختم الآيـة الثانية بالمـؤمنين المنفقين فـقال: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ وهم أخصّ من الأولين فإنهم جزء من الناس.

فـأطلق في الآية الأولى مناسـبـة للعـمـوم، فلم يقل: (من عـبـاده)، وخصص في الآية الثانـية مناسبة للخصـوص فقال: ﴿مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾، فناسب العموم العموم والخصوص الخصوص.

❀ ❀ ❀

---

(١) البرهان (٢٧٩).

(٢) البحر المحيط (٧/ ٢٨٦).

٧٤- قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ (فاطر: ٢٩).

سؤال: *لماذا جاء بالفعل ﴿يَتْلُونَ﴾ مُضارعًا، وبالفعلين: ﴿أَقَامُوا الصَّلاةَ﴾ و﴿أَنفَقُوا﴾ ماضيين؟ وما سرّ هذا الترتيب؟*

الجواب: جاء بالفعل ﴿يَتْلُونَ﴾ مضارعًا للدلالة على الاستمرار والتجدد؛ لأنه أكثر مما بعده، فإن الذين يُقيمون الصلاة لابد أن يتلوا فيها كتاب الله، ولا تكون صلاة من غير تلاوة.

والتلاوة قد تكون في غير الصلاة، ولا يُشترط فيها ما يُشترط في الصلاة من وضوء أو استقبال قبلة أو أوقات معينة، فهي أكثر من الصلاة، وهي لاشك أكثر من الإنفاق.

فجاء بالفعل فيها مضارعًا للدلالة على الاستمرار والتجدد.

وأما سرّ الترتيب في الآية فهو واضح فإنه تدرج من الكثرة إلى القلة، فالتلاوة أكثر من الصلاة كما ذكرنا، والصلاة أكثر من الإنفاق، فإن الصلاة المكتوبة فقط خمسة أوقات في اليوم والليلة عدا السنن، والإنفاق لا يكون بهذه الكثرة.

هذا إضافة إلى أن الصلاة فرض على الجميع بخلاف الإنفاق فإن كثيراً من المصلين لا يجب عليهم إنفاق، وإنما قد تُصرف إليهم بعض وجوه الإنفاق كما هو معلوم.

❀ ❀ ❀

٧٥- قال تعالى في سورة يس: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ (٥١).

سؤال: *لماذا قال: ﴿مِّنَ الْأَجْدَاثِ﴾ ولم يقل: (من القبور)؟*

الجواب: الأجداث هي القبور إلا أنه -والله أعلم- كان لاختيار الأجداث ههنا وفي موطنين آخرين سبب، ذلك أن الأجداث جمع جَدَث وهو القبر، ولفظة (الجدَث) قريبة في اللفظ والاشتقاق من لفظ (جَدَثة) وليس بينهما إلا زيادة الهاء في الآخر.

والجَدَثة صوت الحافر والخف ومضغ اللحم(١).

وصوت خروج الموتى من الأجداث مُسرعين شبيه بصوت الحافر والخف عند السير والعَدْو، وقد خصّ استعمال الأجداث بحالة الخروج من القبور مُسرعين إلى المحشر.

قال تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ (القمر: ٧)، وقال: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ (المعارج: ٤٣)، ولم يستعملها في حالة السكون بخلاف لفظة: (القبور) فإنه استعملها في حال السكون والهمود، كقوله تعالى: ﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ (الممتحنة: ١٣)، وقوله: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ (فاطر: ٢٢).

واستعملها في حال بعثرتها وبعثرة ما فيها فقال: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ (الانفطار: ٤)، وقال: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ (العاديات: ٩).

ومع ذلك فإن هناك فرقًا بين الحالتين، فقوله: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾

(١) انظر القاموس المحيط (الجدث).

لايدل إلا على بعثرة القبور، كما تقول: (بُعثرت الصناديق)، و(بعثرت الحاجات)، ولا يدل على السير والحركة، وإن كان المقصود من بعثرة القبور ذلك.

وكذلك قوله: ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ فإنه يدل على بعثرة ما فيها كما تُبعثر الأشياء من مكانها، ولا يدل ذلك من حيث اللفظ إلا على البعثرة، ولا يدلُّ على السَّيْر والحركة، بخلاف ما ورد في استعمال الأجداث؛ فإنها كلها تدل على حركة الخارجين منها والإسراع في السير، فقوله: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ معناه: يُسرعون.

وكذلك قوله: ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾، وقوله: ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ⑦ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ (القمر: ٧، ٨)، أي: مُسرعين.

فإنها كلها تدل على الإسراع في السير، وذلك نظير صوت الحافر والخف عند السير.

وفيها دلالة جمالية أخرى: ذلك أن من معنى (الجدثة) كما ذكرنا مضغ اللحم، فكأن المعنى إنما يخرجون بعدما أكلتهم الأرض ومضغت لحومهم، وليس في لفظ القبور مثل ذلك المعنى، والله أعلم.

❀ ❀ ❀

٧٦ - لماذا وصف الله سيدنا إسماعيل بأنه غلام حليم، فقال فيه: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ (الصافات: ١٠١).

ووصف سيدنا إسحاق بأنه غلام عليم، فقال فيه: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ (الذاريات: ٢٨)؟

الجواب: الحلم: هو أن يملك الشخص نفسه عند الغضب، وهو يظهر عند التعامل مع الآخرين والعلاقة بهم.

وقد ذكر الله علاقة إسماعيل بأبيه وبالآخرين في أكثر من موطن في القرآن الكريم، فقد ذكر بعد قوله: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾، قوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (الصافات: ١٠٢).

وذكر بناءه البيت مع إبراهيم أبيه، فقال: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٧).

وقد ذكر الله عنه أنه رسول نبي، وأنه كان صادق الوعد، والرسالة إنما تقتضي حسن التعامل مع الآخرين.

وصدق الوعد إنما يكون إذا وعد جهة ما بأمر معين فوفاها إياه، ووصفه بالصيغة الاسمية يدل على ثبوت هذه الصفة فيه.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥٤ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ (مريم: ٥٤، ٥٥).

وهذه الأمور تقتضي علائق اجتماعية وفيها يظهر الحلم أو غيره، فوصفه بالحلم لذلك

وأما إسـحاق فلم يذكـر له علاقـة بالآخرين، وقـد وصفـه الله بالعلم، والعلم لا يقتضي مثل تلك العلائق.

ثم إنه قد ذكـر الله عنه أنه نبي ولم يذكر أنه رسول، فـقال: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (الصافات: ١١٢).

وقال: ﴿وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ (مريم: ٤٩)، والنبوة لا تقتضي علائق كالرسالة، فوصفه بالعلم ولم يصفه بالحلم.

ويَحسنُ أن نذكرَ أنه حين يصف الله نبيًّا بصفة كمال لا يعني أن الأنبياء الآخرين ليسـوا متصفين بمثل هذه الصفة، أو أن هذا النبي لم يتـصف بصفة كمال غـيرها، فإذا وصف نوحًـا مثلاً بأنه كان عـبدًا شكورًا لا يعني ذاك أن الأنبياء الآخرين ليسوا كذلك، وإذا وصف إبراهيم بأنه أواه مُنيب لا يعني أن إخوانه من الأنبـياء ليسـوا كذلك، بل كلهم عبـاد شاكرون لأنعـمه سبـحانه منيبون إليه، وإنما هو يذكـر أمرًا أو وصفًا يقتضيه السيـاق أو يكون مشتهرًا به أكثر من غيـره من الصفات، فوصف كلاً منهما بما يقتضـيه سياقه الذي ورد فيه، أو الأمر الذي أُوكِلَ إليه.

❀ ❀ ❀

٧٧-قال تعالى في سورة (ص): ﴿إن كلٌّ إلا كذب الرسل فحق عقاب﴾ (١٤).

وقال في سورة (ق): ﴿كلٌّ كذب الرسل فحق وعيد﴾ (١٤).

سؤال: *لماذا قال في آية (ص): ﴿فحق عقاب﴾ وقال في آية (ق): ﴿فحق وعيد﴾؟*

الجواب: إن العقاب أشد من الوعيد، والصفات المذكورة للكافرين في (ص) أشد مما في (ق)، وهم في (ص) أشد وأعتى على المسلمين مما في (ق)، وذكر من عقوبات الأمم السابقة في (ص) ما لم يذكره في (ق)، وذكر من تهديد الكافرين وتوعدهم في (ص) ما لم يذكره في (ق) فناسب ذلك أن يذكر في (ص) أشد مما ذكره في (ق).

قال تعالى في (ص): ﴿صَ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢) كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلاتَ حِينَ مَنَاصٍ (٣) وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ (٧) أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (٨) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (٩) أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ (١٠) جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ (١١) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُولَئِكَ الأَحْزَابُ (١٣) إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤) وَمَا يَنظُرُ هَؤُلاءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ (١٥) وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦) اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧)﴾ (١ - ١٧).

وقال في ق: ﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ (٥) أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ (١١) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤)﴾ (١-١٤).

ومن النظر في النصين يتضح ما يأتي:

١ - أنه وصف الكافرين في (ص) أنهم في عزة وشقاق، فقال: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾، ولم يقل مثل ذلك في (ق).

٢ - وذكر أنه أهلك من القرون المُكذبة السابقة الكثير فاستغاثوا وصرخوا فلم ينفعهم ذلك، فقال: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ (٣)، ولم يذكر مثل ذلك في (ق).

٣ - قال الكافرون في الرسول في (ص) ما لم يقولوه في (ق)، فقد قالوا في (ص): ﴿هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾، ولم يقولوا مثله في (ق).

قد تقول: ولكن ورد أيضًا في (ق) ذكر التكذيب، فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ (٥).

فنقول: إنه ورد في (ص) من التكذيب ما هو أشد إضافة إلى ما ورد من

وصف الرسول بالسحر والكذب، فقالوا: ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ ۝ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ (٧، ٨)، كما سنذكر.

٤ - كان إنكارهم في (ص) أشد مما في (ق)، فقد قالوا: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ ولم يقولوا مثله في (ق).

٥ - وكان عجبهم في (ص) أشد مما في (ق)، فقد قالوا في (ق): ﴿هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾، وقالوا في (ص): ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾، بالتوكيد بإن، واللام، والعدول عن صيغة عجيب إلى عجاب، وهي أشد عجبًا من عجيب[1].

٦ - وذكر في (ص) أن الكافرين طلبوا السعي لنصرة آلهتهم فقال: ﴿ وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ (٦)، ولم يذكر ذلك عنهم في (ق).

٧ - وكرروا إنكارهم وتكذيبهم في (ص) وأنهم لم يسمعوا بمثل هذا، فقالوا: ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ﴾.

٨ - وكرروا إنكارهم أن يكون الله اختار محمدًا لرسالته دونهم، فقال على لسانهم: ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ (٨)، ولم يذكر مثل ذلك في (ق).

٩ - توعدهم ربنا في (ص) وهددهم بقوله: ﴿ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾، والنفي بـ«لـمَّا» يعني أنهم لم يذوقوا عذابه إلى الآن، وهو متوقع أن يذوقوه، وهو تهديد لهم وتوعد بارتقاب العذاب، ولم يقل مثل ذلك في (ق).

(١) انظر كتابنا (معاني الأبنية في العربية) (٩٨-١٠٠).

١٠ - وذكر في (ص) أن جندهم سيهـزم فقال: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾ (١١).

«وهذا وعد من الله سبحانه لنبيه ﷺ بالنصر عليهم والظفر بهم. وقد وقع ذلك ولله الحمد في يوم بدر، وفيما بعده من مواطن الله»[١].

١١ - ذكـر في السورتين طرفًا من الأمم السـابقة المُكذبة غير أنه أكد التكذيب في (ص) أكثر مما أكده في (ق).

فقد قال في (ص): ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ (١٤).

وقال في (ق): ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ (١٤)، فـزاد التكذيب توكيدًا في (ص) بأسلوب القصر فقال: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾، ولم يقل مثل ذلك في (ق).

هذا إضـافة إلى أنـه وصف فرعـون في (ص) بما لم يصـفه في (ق)، فقال: ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ ولم يصفه بذاك في (ق).

ومما قـيل في وصف ذي الأوتاد أنه كـانت له أوتاد يعـذب بهـا الناس، وذلك أنه إذا غـضب على أحد وتد يديه ورجليـه ورأسه على الأرض وقـيل غير ذلك[٢].

١٢ - ثم توعدهم في (ص) بعذاب يأخذهم لا يـمهلهم، فقال: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ (١٥)، أي: «ما لها من توقف مقـدار فواق، وهو ما بين حلبـتي الحالب ورضـعتي الراضع»[٣]، ولم يذكر مثل ذلك في (ق).

(١) فتح القدير (٤/ ٤١٠)، وانظر تفسير ابن كثير (٤/ ٢٨)، الكشاف (٣/ ٥).

(٢) انظر فـتح القـدير (٤/ ٤١١)، ابن كـثـيـر (٤/ ٥٠٨)، الكشـاف (٣/ ٥)، البـحـر المحـيط (٧/ ٣٨٦).

(٣) الكشاف (٣/ ٥)، وانظر البحر المحيط (٧/ ٣٨٧).

١٣ - وذكر في (ص) أن هؤلاء المشركين دعوا على أنفسهم بتعجيل العذاب والعقوبة إمعانًا في التكذيب، فقال: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (١٦).

جاء في «تفسير ابن كثير»: «﴿قَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ هذا إنكار من الله تعالى على المشركين في دعائهم على أنفسهم تعجيل العذاب فإن القط هو الكتاب، وقيل: هو الحظ والنصيب.

[قال غير واحد من المفسرين]: سألوا تعجيل العذاب . . . كما قالوا: ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾» (الأنفال: ٣٢)[١]، ولم يذكر مثل ذلك في (ق).

١٤ - أمر رسوله في (ص) بالصبر على ما يقولون، فقال: ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ (١٧)، ولم يذكر مثل ذلك في (ق) في هذا السياق.

فاتضح أن موقف الكافرين في (ص) أشد وأعتى فاستحقوا الزيادة في التهديد فقال: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ الذي هو أشد من الوعيد، فناسب كل سياق ما ورد فيه.

ثم إنه ناسب كل تعبير مكانه من جهة أخرى:

فقد قال في (ص): ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ فكان أسلوب التكذيب في (ص) أشد وآكد لأنه جاء بأسلوب القصر فاستحقوا من العقوبة ما هو أشد مما هو في (ق).

١٥ - وإضافة إلى ذلك أن كلمة ﴿وَعِيدِ﴾ وردت في (ق) أربع مرات ولم ترد في (ص)، بل هي أكثر سورة في القرآن وردت فيها هذه اللفظة.

وأن كلمة (العقاب) لم ترد في (ق)، فناسب كل تعبير مكانه من جهة أخرى، والله أعلم.

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٩)، وانظر الكشاف (٣/ ٦).

٧٨- قال تعـالى في سورة (ص): ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (١٧).

وقال في سورة الذاريات: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (٤٧).

سؤال: ***لماذا رُسمت ﴿الأَيْدِ﴾ في سورة (ص) بياء واحـدة، ورُسمت في سورة الذاريات (بِأَيْيدٍ) بياءين مع أنهما كلمة واحدة، ولفظ واحد؟***

الجواب: من المعلوم أن رسم المصـحف لا يُقاس عليـه، ولكن مع ذلك كأن في هذا الرسم جانبًا بيانيًّا.

إن معنى (الأيد) هو القوة في الآيتين، لكن لما كـانت قوة الله زائدة على قوة داود زِيد في الرسم.

ومما سـوّغ ذلك أيضًا أن الله سـبحـانه عبّـر عن نفســه بضمـير الجـمع للتعظيم، فقال: ﴿بَنَيْنَاهَا﴾ وقال: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ بخلاف كلامه على داود، فناسب جمع يـاءين في موطن الجمع، والإفـراد في موطن الإفـراد علمًا بأن هذا النوع من الرسم كـان جـاريًا في ذلك الوقت أعني زيادة حـرف علة في الرسم.

فناسب كل رسم موضعه، وهو من لطيف الرسم، والله أعلم.

❀ ❀ ❀

٧٩- قال تعالى في سورة الزمر: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (١٧، ١٨).

وقال في سورة الفجر: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۝٢٩ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (٢٧ - ٣٠).

سؤال: *لماذا قال في فاصلة آية الزمر: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ فحذف ياء المتكلم في كلمة ﴿عِبَادِ﴾، وقال في فاصلة آية الفجر: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ فذكر ياء المتكلم فيها؟*

الجواب: إن هذا يدخل فيما ذكرناه في كتابنا (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني) من أن ما ذكرت فيه الياء أوسع وأشمل مما حُذفت منه الياء[1].

وذلك أن العباد في آية الفجر أكثر منهم في آية الزمر، فقد خصصهم في آية الزمر بقوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ فهم لم يكتفوا بالحسن بل يتبعون الأحسن، وأطلقهم في آية الفجر في عموم عباده الذين يدخلون الجنة ولاشك أن فيهم مَن لم يكن يتبع أحسن القول.

فلما كثر العباد في آية الفجر زاد في البناء مناسبة لزيادة العباد، ولما كان العباد في آية الزمر جزءاً ممن ذكر في آية الفجر اقتطع من الكلمة لتناسب قلة البناء قلة العباد.

ومما حسّن ذلك أيضًا مناسبة كل فاصلة للفواصل التي وردت معها، فإن فاصلة آية الزمر تقع ضمن فواصل شبيهة بهذه الفاصلة، نحو: ﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ و: ﴿مَن فِي النَّارِ﴾ ونحوها[2].

(١) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني (٣١) وما بعدها، وانظر (ص٣٧).
(٢) انظر بلاغة الكلمة (ص٣٧).

وإن فاصلة آية الفجر مناسبـة لفاصلة الآية بعدها، وهي قوله: ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ بإضـافة الجنة إلـى ياء المتكلم، فناسب أن يظهـر ضمـيـر المتكلم مع العبـاد، كما ظهر مع الجـنة، فالعباد عـباده، والجنة جنته، وعـباده يدخلون جنته.

❀ ❀ ❀

٨٠ - قال تعالى في سورة غافر: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ (١٥) يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (١٥- ١٧).

سؤال: *لماذا قال: ﴿التَّلاقِ﴾ فحذف الياء ولم يقل: (التلاقي)؟*

الجواب: من الظواهر التعبيرية في القرآن الكريم أنه إذا كان الحدث دون الاكتمال اقتطع من حروفه، وإذا كان حدثان بعضهما أطول من بعض، أو كان وقوعه أكثر اقتطع مما هو أقصر، وقد ضربنا في كتابنا: «**بلاغة الكلمة في التعبير القرآني**» أمثلة لذلك، كما في نحو: ﴿اسْطَاعُوا﴾ و: ﴿اسْتَطَاعُوا﴾، و: ﴿تَنَزَّلُ﴾ و: ﴿تَتَنَزَّلُ﴾، و: ﴿تَوَفَّاهُمُ﴾ و: ﴿تَتَوَفَّاهُمُ﴾ وغيرها[1].

وفي هذا اليوم -أي يوم القيامة- ليس التلاقي كما في الدنيا من حيث الطول وتبادل الحديث، فإن المتلاقين لا يُفيضون في الحديث وبث الأشواق، ولا يحدّث بعضهم بعضًا عمّا جرى لكل منهم في الفراق الطويل بينهما، فإن هذا اليوم إنما هو يوم الفرار الأكبر كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (عبس: ٣٤- ٣٦)، ولا يسأل أحد صاحبه عمّا جرى له كما أخبر ربنا بذلك، فقال: ﴿وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ (المعارج: ١٠)، أي: لا يسأل قريب قريبًا فكيف بالأباعد؟

وكما قال أيضًا: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (المؤمنون: ١٠١).

ومن هذا يتبين أن التلاقي يوم القيامة ليس كما في الدنيا من حيث بثّ المشاعر، وسماع الحديث، وطُول المُكث بينهم، وإنما هو فرار من غير

(١) انظر (بلاغة في التعبير القرآني) (ص١١) وما بعدها.

مُساءلة، فإن لكل امرىء شأنًا يغنيه حتى يقضي الله بين عباده، وتُجزى كل نفس بما كسبت.

فاقتطع من الحدث ليدل على أنه ليس حدثًا مكتملاً يجري فيه ما يجري مع المتلاقين في الدنيا.

هذا علاوة على مناسبة الحذف لفواصل الآيات، والله أعلم.

❀ ❀ ❀

٨١- قال تعالى في سورة الشورى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ (٣٠).

وقال في السورة نفسها في الآية: ٤٨: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ﴾.

سؤال: *لماذا قال في الآية الأولى: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، وقال في الآية الأخرى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ فذكر الكسب في الآية الأولى، وذكر التقديم في الآية الأخرى؟*

الجواب: لقد سبق الآية الأولى الكلام على الرزق، فقال: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (٢٧)، والرزق مما يُكسب فناسب ذكر الكسب.

وليس السياق كذلك في الآية الأخرى، وإنما السياق في الكلام على اليوم الآخر، فقد قال: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ (٤٧).

فناسب ذكر ما قدموه من أعمال، فناسب كل تعبير مكانه الذي ورد فيه.

ونظير ذلك قوله تعالى في سورة الروم: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ (٤١).

فذكر الكسب لما تقدمها ذكر الرزق والأموال، فقال: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧) فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم

مَن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ (٣٧- ٤٠).

في حين قال في السورة نفسها: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ (الروم: ٣٦)، فقال: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ فذكر التقديم لما لم يكن السياق في ذكر الرزق، وإنما تقدمها ذكر الضر والرحمة، فقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ (٣٣)، فناسب كل تعبير مكانه الذي ورد فيه في كل موضع.

❀ ❀ ❀

٨٢ - قال سبحانه في سورة الشورى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (٤٩، ٥٠).

سؤال:

١ - لماذا قدّم الإناث على الذكور، ونكّر الإناث، وعرّف الذكور في الآية التاسعة والأربعين؟

٢ - لماذا جمع الذكر على ذكور في الآية الأولى، وعلى (ذكران) في الآية التي قبلها؟

الجواب:

١ - إن الجواب عن السؤال من أكثر من وجه:

منها: أنه تردد في السورة في أكثر من موضع ما لا يرغب فيه الإنسان ولا يشاؤه، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ (٣٠)، وقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ (٤٠).

وقوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (٤٣)، وواضح أن الصبر ههنا على المكاره ومغفرة ما يسوؤه من الأمور.

وقوله: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ (٤٨).

وقوله: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ (٤٩).

فقدم ما لا يرغب فيه أهل الجاهلية آنذاك، وهو متسق مع ما تردد في السورة كما ذكرنا

ثم إن سياق الكلام في أن الله فاعل ما يشاء لا ما يشاؤه الإنسان ويهواه، فقـد قال: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ (الشورى: ٤٩)، أي: ما يشاؤه هـو، لا ما يشاؤه الإنسان، وذلك لحكمة أرادها سبحانه.

جاء في «روح المعاني»: «ولما ذكر سبحانه إذاقة الإنسان الرحمة، وإصابته بضدها أتبـع جل وعلا ذلك أن له سبـحانه الملك، وأنه تعـالى يقسم النعـمة والبلاء كما شاء بحكمته تعالى البالغة لا كما شاء الإنسان بهواه»[١].

ثم إن هذا التقديم ناسب ذكر البـلاء في الآية التي سبقت هذه الآية وهو قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ (٤٨).

ومجيء الإناث مما يُسيء العـرب آنذاك، وهو ما يكرهونه لأنفسهـم كما أخبر عنهم سـبحانه: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (النحل: ٥٨، ٥٩)، فجعلها في سياق ما يصيبهم مما يكرهون.

وقيل: قد يكون التـقديم توصية برعايتـهن لضعفهن وإن إحســان التربية إليهن سترٌ من النار كما في الحديث[٢].

أما تعريف الذكور وتنكير الإناث، فقد قيل: إنه «جاء لفظ الذكور معرّفًا ليشير -بما تُعطيه الألف واللام من العـهدية- إلى حالهم من الفضل، ودرجة التـقدم على الإناث، فكأنه في قـوة أن لو قيل: الذين من شـأنهم، فـتوازن تقديم الإناث وتـعريف الذكور، فـقدّم ذكـر الإناث لإرغام العـرب، وعرّف الذكور لشرف المنزلة»[٣].

---

(١) روح المعاني (٢٥/ ٥٣).

(٢) انظر روح المعاني (٢٥/ ٥٤).

(٣) ملاك التأويل (٢/ ٨٤٧).

وقيل: إن التعريف على أنه المعروف الحاضر في قلوبهم أول كل خاطر، وإنه الذي عقدوا عليه مناهم[١].

ثم إن العرب يُكنون عن النساء ولا يذكرون أسماءهن صونًا لهن بخلاف الذكور، فالذكور معارف عند العرب مشاهير عندهم، بخلاف الإناث، فإنهن مصونات مستورات لا يبرزن ولا يُعرفن، فعرّف ونكّر بحسب ما جرت العادة عندهم من استحسان كل جنس، والله أعلم.

٢ - أما الجواب عن السؤال الثاني، وهو أنه لماذا جمع الذَّكَر مرة على الذكور، ومرة على ذكران؟ فهذا له سببه، فإن القرآن الكريم يستعمل (فُعلان) في الجمع للقلة النسبية.

وعلى هذا حيث ورد هذان الجمعان في القرآن كان الذُّكران أقل من الذكور، وفي الآية هذه قال تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ (الشورى: ٤٩، ٥٠).

«فاستعمل الذكور للكثرة، والذكران للقلة النسبية فإن العادة أنه إذا أفرد شخص بالذكور كانوا أكثر من أن يقرنهم بالإناث، فإن المرأة إذا ولدت ذكوراً فقط كان عدد الذكور أكثر في العادة من أن تلد ذكرانًا وإناثًا.

وقال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء: ١٦٥)، وقال: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ (الأنعام: ١٣٩)، فاستعمل الذكران للقلة النسبية، فإن الموصوفين بهذه الصفة لا يأتون جميع الذكور، وإنما يأتون صنفًا خاصًا منهم، ألا ترى أنهم لا يأتون الأطفال والشيوخ، وإنما يأتون من تستسيغه نفوسهم المنكوسة من الذكران، وهم أقل من مجموع الذكور بخلاف قوله تعالى: ﴿خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ فإنه يشمل جميع الذكور بلا استثناء، والله أعلم»[٢].

---

(١) روح المعاني (٢٥/ ٥٤). (٢) معاني الأبنية في العربية (١٥٨- ١٥٩).

٨٣ – قال تعالى فـي سورة الزخرف: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ (٢٢).

وقال في الآية التي تليها: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ (٢٣).

سؤال: *لماذا قال في الآية الأولى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾، وقال في الآية التي تليها: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾؟*

الجواب: إن الآية الأولى في كفـار العرب المعاصـرين للرسول ﷺ، وقد ذكر عنهم أمورًا تتـعلق بمعتقداتهم في الملائكة والعبادات ومـحاجّتهم في ذلك.

فقـد قال عنهم في سيـاق هذه الآيات: إنهم قالوا عن الله سبـحانه: إنه اتخذ مما يخلق بنات يعنون الملائكة، فقـال لهم سبحانه: ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ﴾ (الزخرف: ١٦).

وقال ذاكـرًا معـتقـدهم في الملائكة: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ (١٩)، وحكى عنهم ما كانوا يعتقدون في المشيئة، فقال: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ (٢٠).

وردّ عليهم سـبحانه بعـدم العلم قائلاً: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (٢٠) نافيًا عنهم العلم بذلك.

وهذه مما يحتاج إلى الهدى، ولا تُقال تخرصًا وظنًّا، ثم قال سبحانه نافيًا عنهم أسبـاب الهدى والعلم: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ (٢١)، ولما كانت هذه الأمـور تحتاج إلى الهدى احـتجوا بأنهم مهـتدون بآثار آبائهم، فـقالوا: إنهم وجـدوا آباءهم على ملة أو دين، وهم مـهتـدون على آثارهم.

وأما الآية الأخرى فهي في الأمم السابقة فقد قال: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ (الزخرف: ٢٣).

ولم يذكر عنهم معتقدًا ولا احتجاجًا ولا سببًا من أسباب العلم والهدى، فلم يقتض ذكر الهدى.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه ذكر قول مُترفيهم، والمترفون لا تعنيهم أمور العبادات ولا يعنيهم الهدى، ولم يذكر القرآن الذين أُترفوا والمترفين بخير بل حيث ذكَرَهُم ذكَرَهُم مُعاندين مُعرضين مُكذبين مُحاربين لله ورسُله، لا يعنيهم شيء من أمور الهدى، فلم يذكروا الهدى، وإنما ذكروا أنهم مُتبعون لآبائهم مقتدون بهم على أية حال، والاقتداء هو الاتباع على أية حال سواء كان القدوة ضالا أم مهتديًا، جاء في «المفردات في غريب القرآن»:

«الأسوة والإسوة كالقِدوة والقُدوة، وهي الحالة التي يكون الإنسان عليها في اتباع غيره إن حسنًا وإن قبيحًا، وإن سارًّا وإن ضارًّا، ولهذا قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: ٢١) فوصفها بالحسنة»(١).

جاء في «درة التنزيل» في سبب الاختلاف بين هاتين الفاصلتين في الآيتين المذكورتين من سورة الزخرف: «الجواب أن يقال: إن الأولى حكاية قول الكفار الذين حاجّوا النبي ﷺ، فقال مُخبرًا عنهم: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ﴾ أي: من قبل القرآن ﴿فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ (الزخرف:٢١) أي كتابًا فيه حجة بصحة دعواهم فهم متعلقون به...

وقال تعالى: لا حجة لهم لكنهم قالوا وجدنا آباءنا على ملة وطريقة في الدين مقصودة، ونحن في اتباع آثارهم على هداية، فادَّعَوا الاهتداء بسلوكهم سبيل آبائهم.

---

(١) المفردات في غريب القرآن (أسا).

وأما الآية الثانية فإنها خبـر عن الأمم الكافرة بأنبيائها، قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ (الزخرف: ٢٣) إلا قال ذوو النعـم والأموال من أهلهـا قريبًا من قول هؤلاء الذين في عـصرك يا مـحمـد، فكان أقصـى ما احتجوا به أن قـالوا: إنا وجدنا آباءنا على أمة فاقتدينا بـهم، ولم يؤكد الخبر عنهم بدعواهم الاهتداء كما أكده عمَّن كان في عصره ممن يدعيه لبطلان قول الجميع»[١].

وجاء في «مـلاك التأويل» في هاتين الآيتين: «ووجـه ذلك -والله أعلم- أن ما تقدم الآية الأولى حكاية قول كفار العرب المعاصرين لرسول الله ﷺ والسامـعين منه القرآن المسـمى هدى في غير مـوضع كقـوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ٢) وقوله: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾(الجاثية: ١١)، وقوله: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ (لقمان: ٣) فلما دعاهم ﷺ ليهتدوا بهديه قابلوا دعاءه بقولهم: إنهم مهتدون، وإنهم وجدوا آباءهم عـلى أمة، وأن ما وجدوهم عليه هدى، فقالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ (الزخرف: ٢٢) أي على دين وملة ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ كهديـهم فلما دعاهم إلى الهدى زعـموا أنهم على هدى. وهذا أبين تناسب.

وأما الآية الثانية فـحكاية أقوال قرون مختلفة، وقـد ذكر تعالى من قول بعضهم: ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ (الأنبياء:٥٣) وفي موضع: ﴿كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (الشعراء:٧٤) فهذا اتباع مجرد من ادّعى كونه هدى أو غير هدى، فهو اعتـراف بتقليد واتبـاع بتعظيم لفـعل آبائهم من غيـر ادعاء شبـهة، فلم يكن ليطابق هذا إلا الوارد من قـوله تعـالى عنهم: ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ (الزخرف:٢٣)، فجاء كلٌّ على ما يناسب والله أعلم»[٢].

---

(١) درة التنزيل (٤٣٤).

(٢) ملاك التأويل (٨٥١- ٨٥٢).

٨٤ - **سؤال:** *لماذا رُسمت (قال) في الآية الرابعة والعشرين من سورة الزخرف ﴿قَـٰلَ﴾ من دون رسم الألف، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَـٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾. ورُسمت في الآية السادسة والعشرين من السورة نفسها بـ ﴿قَالَ﴾ برسم الألف وذلك في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ...﴾؟*

الجواب: إن ذلك يتعلق برسم المصحف أولاً، ورسم المصحف لا يُقاس عليه، ثم إن ذلك لأمر آخر وهو أن في ﴿قَالَ﴾ في الآية الرابعة والعشرين قراءتين متواترتين: قراءة بالفعل الماضي (قال)، وهي قراءة ابن عامر وحفص عن عاصم، وقراءة بفعل الأمر: (قل) وهي قراءة الباقين من العشرة[1].

فكلتا القراءتين متواترة فرُسمت بما تصح فيه القراءتان إشارة إلى أن هاتين القراءتين وردتا عن رسول الله ﷺ. ومعلوم أن من أركان القراءة الصحيحة موافقة الرسم العثماني.

❀ ❀ ❀

٨٥ - قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ (الزخرف: ٨٤).

سؤال: *لماذا كرر كلمة ﴿إِلَٰهٌ﴾ ولم يقل مثلاً: (وهو الذي في السماء والأرض إله) أو: (وهو الذي في السماء وفي الأرض إله)؟*

الجواب: لو قال: (وهو الذي في السماء والأرض إله) لاحتمل المعنى أنه هو الإله المشترك فيهما، وقد يكون فيهما آلهة غير مشتركة، فقد يكون المعنى أن في السماء إلهًا أو آلهة خاصة بها ليست لأهل الأرض، وقد يكون في الأرض إله أو آلهة خاصة ليست لأهل السماء، ولكن الإله المشترك فيهما هو الله، وهذا المعنى لا يصح أن يُراد.

---

(١) انظر النشر في القراءات العشر (٢/ ٣٦٩).

أما لو قلنا : (وهو الذي في الســماء وفي الأرض إله) فإن ذلك لا ينص على أنه إله في السماء ، بل على أنه إله في الأرض ، إذ إن المعنى سيحتمل أن يكون : (وهو الذي في السماء) (وفي الأرض إله) فإن ذلك يدل على أنه في السمــاء ، وهو في الأرض إله ، كما تقول : (هو في إدارة المعــمل ، وفي كلية الآداب عميد) فإن ذلك لا يعني أنه عميد في إدارة المعمل .

أما قوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ﴾ فهو نص في أنه إله في السماء لا إله غيره ، وفي الأرض هو إله لا إله غيره ، وهو المعنى المُراد .

وقيل أيضًــا : إنه كرر ذلك لأن عبودية أهل الســماء تختلف عن عــبودية أهل الأرض(١) .

❀ ❀ ❀

(١) انظر روح المعاني (٢٥/ ١٠٧).

٨٦ - قال تعـالى في سورة الذاريات: ﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ (٣٨، ٣٩).

وقال في هذه السورة أيضًا: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ (٥٢).

سؤال: *لماذا رُسمت كلمة (ساحر) في الآية التاسعة والثلاثين ﴿سَٰحِرٌ﴾ بلا ألف، ورُسمت في الآية الثانية والخمسين ﴿سَاحِرٌ﴾ بالألف؟*

الجـواب: إن كلمة (ساحـر) رُسـمت في المصحف بأكـثر من صـورة، فالمعرّفة بـ(أل) رُسمت بالألف حيث وقعت، وذلـك نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ (طه: ٦٩).

وهذه الصورة لا تعنـينا وهي صورة لم يختلف بعـضهـا عن بعض، فلا تكون مـثار سـؤال، وأمـا النكرة فـرُسمت من دون ألـف حيث وقـعت أي (سَٰحِر) إلا في قوله تعالى في الذاريات: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾، والسؤال إنما هو عن سـبب الاختلاف في رسم هذه الكلمة هنا عن سائـر الآيات، ومنها آية الذاريات في قوله: ﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾.

والجـواب: إن كلمة (ساحر) الأولى إنما قيلت في مـوسى عليه السلام وهو شخص واحد.

أمـا الآية الثانيـة فـهي في الأمم السابقـة وقـد قالوا في كل واحـد من رسلهم: ﴿سَاحِرٌ﴾، فالآية الأولى في رسول واحد، أمـا الآية الأخرى فإنها في رُسل كثيرين، فلما كثر الرسل وزادوا زيد في الرسم مناسبة للزيادة

قد تقـول: ولكنها رُسمت في قـوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ (يونس: ٧٩)، وقوله: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ (الأعراف: ١١٢) من دون ألف مع أنهم أكثر من واحد فما الفرق؟

والجواب: إن هؤلاء في قوم مخـصوصين وهم قوم فرعـون، وأما قوله تعالى: ﴿مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم . . .﴾ فهو في جميع الأمم السابقة، ولاشك أن أولئك أكثر من سـحرة فرعون، فلما كثـرت الأمم وامتدت وتطاولت زيد في الرسم.

وعلى أية حال فـهذا من خط المصحف الذي لا يُقـاس عليه كمـا ذكرنا أكثر من مرة، وهذا التعليل لا نقطع بصحته، فقد يكون من باب الموافقات.

وهذا ينطبق على أكثر ما نذكره فيما يتعلق برسم المصحف. والله أعلم.

❀ ❀ ❀

٨٧ - قال تعالى في سورة الطور: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ (٧، ٨).

وقال في سورة المعارج: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ (١، ٢).

سؤال: *لماذا قال في سورة الطور: ﴿مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ فنفى بـ(ما)، وقال في سورة المعارج: ﴿لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ فنفى بـ(ليس)؟*

الجواب: إن الآية في سورة الطور مسبوقة بقسم، وهو قوله: ﴿وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ (١- ٨).

وقد تلقى القسم بالجملة الاسمية المؤكدة بـ(إنّ) واللام فقال: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾، ونفى دفعه بالجملة الاسمية المؤكدة أيضًا مناسبة لجواب القسم المؤكد فقال: ﴿مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾، فنفاها بـ(ما) وجاء بـ(من) الاستغراقية المؤكدة.

أما في سورة المعارج فليس ثمة قسم، وإنما قال: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ أي دعا لنفسه بالعذاب وطلبه لها، ونفى دفعه بالجملة الفعلية فقال: ﴿لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾، فقوله: ﴿مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ أنسب بالقسم، وأنسب بالجملة التي قبله.

وقد أكد وقوع العذاب في آية الطور دون آية المعارج؛ لأن السياق في الطور يدل على وقوعه فعلاً، وليس الأمر كذلك في المعارج، فقد قال في المعارج: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦) وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ (٥- ٧).

فأمره بالصبر الجميل، ثم قال: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾، وذلك يدل على أن في الزمن متسعًا بينهم وبينه، ولم يقل مثل ذلك في الطور.

ثم إنه في المعارج ذكر موقف المجرم من العذاب الذي سيلحقه يومئذ، وهو من الوعيد الذي توعده به ربه، وليس واقعًا بعد، فقال: ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ (١٤) كَلاَّ إِنَّهَا لَظَىٰ (١٥) نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ (١٦) تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾ (١١- ١٨).

وأما في الطور فالسياق يبين أن الأمر حاصل وأنهم يشاهدون النار موقوفين عليها مخاطبين بقوله: ﴿هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٤- ١٦)، فوقوع العذاب وعدم دفعه في الطور آكد وهو أقرب مما في المعارج، فأكده دون آية المعارج، فناسب كل تعبير موضعه.

❀ ❀ ❀

٨٨- **سؤال:** *قوله تعالى في سورة القمر: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ (١٦، ١٨، ٢١، ٣٠) يأتي به مرة بعد ذكر العذاب كما في قصة نوح، ومرة يأتي به قبل ذكر العذاب كما في ثمود، ومرة يأتي به مرتين: قبل ذكر العذاب وبعد ذكر العذاب كما في عاد، فما السبب؟*

الجواب: يأتي قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ في حالتين:

الحالة الأولى: أن يذكر القوم ومخالفتهم رسولهم، فيقول: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي: فكيف عاقبناهم؟

فيكون السؤال بقصد بيان العذاب، ثم يذكر عذابهم.

والحالة الأخرى: أن يذكر القوم ويذكر مخالفتهم رسولهم، ثم يذكر عقابهم فيقول: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أليس هذا ما يستحقونه؟

فيكون القصد من ذلك هو التعجيب والتهويل من عقوبة ربنا لهم، وسوء عاقبتهم، جاء في «روح المعاني»: « ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾: لتوجيه قلوب السامعين نحو الإصغاء إلى ما لا يلقى إليهم قبل ذكره، لا لتهويله، وتعظيمه، وتعجيبهم من حاله بعد بيانه كما قبله، كأنه قال: كذبت عاد فهل سمعتم أو فاسمعوا كيف كان عذابي وإنذاري لهم»(١).

أما الجواب عن سبب مجيئه مرة واحدة في قوم نوح، ومرة واحدة في ثمود، ومرتين في عاد فذلك -والله أعلم-:

أن تكذيب عاد أعمّ من تكذيب قوم نوح وثمود، فقد قال في قوم نوح: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ (٩).

فذكر أنهم كذبوا عبد الله أي رسوله، وهو نوح عليه السلام.

---

(١) روح المعاني (٢٧/ ٨٤).

وقال في ثمود: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ (٢٣، ٢٤) وما بعدهما، فذكر أنهم كذبوا بالنذر.

وأما عاد فلم يذكر بماذا كـذبوا، ولا مَن كذبوا، وإنما قال: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾.

فكان تكذيبهم أعم، فذكر قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ مرتين، مرة قبل العـذاب، ومرة بعـد العذاب ليجـمع حالتي البيـان والتهـويل فعمّ ذلك الحالتين، وهذا أعم من أن يذكـر حالة واحدة فناسب العمـومُ العمومَ، والله أعلم.

❀ ❀ ❀

٨٩ - قال تعالى في الممتحنة (٤): ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾.

وقال في الممتحنة (٦): ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

وقال في سورة الأحزاب (٢١): ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾.

سؤال:

١ - لماذا أنّث الفعل في الآية الرابعة فقال: ﴿كَانَتْ﴾، وذكّره في الموطنين الآخرين مع أن اسم (كان) في المواطن كلها واحد، وهو (الأسوة)؟

٢ - ولماذا قدّم في الآية الرابعة الأسوة على المؤتسى به، وأخّرها عنه في الآيتين الأخريين؟

الجواب:

١ - إن الأسوة «تطلق على الخصْلة التي من حقها أن يؤتسى بها ويُقتدى بها»(١) وتُطلق أيضًا على الشخص المؤتسى به.

والراجح في الآية الرابعة أنه أُريد بها الخصلة بدليل أنه ذكرها وبيّنها فقال: ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ . . .﴾ و«لأن الاستثناء الآتي عليها أظهر»(٢) فقال: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ وهذا ما يُرجح إرادة الخَصلة.

فلما كانت الأُسوة ههنا بمعنى المؤنث أنثها.

أما في الآيتين الأخريين فيُراد بها الشخص المتأسَّى به وهي بمعنى المثَل

---

(١) روح المعاني (٢٨/ ٦٩). (٢) روح المعاني (٢٨/ ٧٠).

بدليل أنه ذكر الأشخاص ولم يذكــر الخصلة، فلما كانت الأولى بمعنى المؤنث أنث الفعل.

ولما كانت في الآيتين الأخريين بمعنى المذكر ذكّر الفعل. هذا من ناحية.

ومن ناحيــة أخرى أنه مما حــسّن التذكيــر أيضًا في الآية الســادسة، وآية الأحزاب كثرة الفواصل بين كان واسمها.

فقد فصل في الآية الرابعة بالجار والمجرور (لكم).

وأما الموطـنان الآخران فقــد فصل فـيهـما -إضــافة إلى الجــار والمجرور (لكم)- بمجرورين آخرين وهما في الآية السادسة (فيهم)، وفي آية الأحزاب بـ(في رسول الله)، فحسن التذكير من جهتين.

٢ - وأما الجواب عن الســؤال الثاني فإنه في الآية الرابعــة قدّم الأسوة؛ لأن الكلام يدور علـيـها، وقــد بيّنها بقــوله: ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ...﴾ فكانت الخصلة هي محط الاهتمام.

وأما في الآيتين الأخــريين فلم يذكر الخصلة وإنما ذكــر المؤتسى به فقط، فقدّمه على الأُسوة لأن المؤتسى به هو محطّ الاهتمام.

لقد أطلق التأسي في هاتين الآيتين ليشــمل كل الأمور الحسنة، ولذا أكد في هاتين الآيتين أكـثر مما أكــد في الآية الأولى، فقد قــال في الأولى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ﴾، وأما في الآيتين الأخريين فقد قال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ فجاء باللام الواقعة في جواب القسم إضافة إلى (قد).

ثم أبدل في الآية الســادســة فقــال: ﴿لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾، وكذلك قال في آية الأحــزاب للدلالة على أهمية التأسي بهــؤلاء المصطفين، والله أعلم.

٩٠- قال تعالى في سورة الممتحنة: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ (١٠).

سؤال: *لماذا قال: ﴿لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ بالاسمية، وقال: ﴿وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ بالفعل ولم يجعلهما على نمط واحد فيقول مثلاً: (لا هنّ حلّ لهم ولا هم حلّ لهن)، أو: (لا هن يحللن لهم ولا هم يحلّون لهن)؟*

الجـواب: من المعلوم أن الاسم يدل على الثبوت، والفعل يدل على الحدوث والتغير، فعبر عن المؤمنات بالاسم؛ لأن الحكم لا يتغير بالنسبة إليهن، ولا يجوز منهن التغيير.

وعبر عن الكفار بالفعل لأنه يتغير الحكم بتغيرهم بأن يسلموا.

فالحكم في حقهن ثابت أبدًا، ومن الممكن أن يتغير الحكم بالنسبة إليهم إذا غيروا دينهم إلى الإسلام.

جاء في «روح المعاني»: «﴿ لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ الجملة الأولى لبيان الفرقة الثابتة وتحقق زوال النكاح في الأول.

والثانية: لبيان امتناع ما يستأنف ويستقبل من النكاح ويُشعر بذلك التعبير بالاسم في الأولى والفعل في الثانية.

وقال الطيبي في وجه اختلاف التعبيرين: أنه أسندت الصفة المشبهة إلى ضمير المؤمنات في الجملة الأولى إعلامًا بأن هذا الحكم ثابت فيهن لا يجوز فيه الإخلال والتغيير من جانبهن.

وأسند الفعل إلى ضمير الكفار إيذانًا بأن ذلك الحكم مستمر الامتناع في الأزمنة المستقبلة لكنه قابل للتغيير باستبدال الهدى بالضلال»[١].

❀ ❀ ❀

(١) روح المعاني (٢٨/ ٧٦).

٩١- في سورة المرسلات ذكر الله عقوبة الكافرين في الآخرة فقال: ﴿ انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩) انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ. . . ﴾ (٢٩) وما بعدها.

ثم ذكر جزاء المتقين فقال: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ. . . ﴾ (٤١) وما بعدها.

ثم عاد إلى جزاء الكافرين فقال: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ (٤٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ. . . ﴾ (٤٦) وما بعدها.

فلمَ ذاك؟ ولِمَ لَم يذكر جزاء الكافرين في مكان واحد؟

الجواب: ليس الأمر كما توهم السائل، وإنما جرى ذكر أحداث السورة ومشاهدها في نمط معين ومنهج واضح، وذلك على النحو الآتي:

١ - إن المشهد الأول في السورة بعد القسم بالمرسلات، وما بعدها إنما هو في أحداث يوم القيامة، وهو قوله: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (٩) وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ . . . ﴾.

ثم عاد إلى تذكير الناس بإهلاك مَن تقدمهم، وتذكيرهم بنعم الله عليهم ليتّعظوا، فقال: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ (١٦) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ (١٧) كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (١٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٩) أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ. . . ﴾.

٢ - ثم عاد إلى ذكر الجزاء في الآخرة، فذكر جزاء المكذبين، ثم ذكر بعده جزاء المتقين، وهو ما يقع بعد أحداث القيامة، والفصل بين الخلائق، فقال في جزاء المكذبين: ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩) انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ . . . ﴾.

وقال في جزاء المتقين: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ . . . ﴾.

ثم عاد إلى تذكير الناس في الدنيا ليتعظوا فقال : ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ (٤٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٧) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ (٤٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٩) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ .

فقوله : ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا﴾ إنما هو تهديد ووعيد للكافرين في الدنيا ، فالتمتع القليل إنما هو في الدنيا ، وأما في الآخرة فليس لهم تمتع لا قليل ولا كثير .

ثم قال : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ﴾ وهذا إنما هو في الدنيا وليس في الآخرة ، وكذلك قوله : ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ .

فمنهج السورة واضح بيّن وهو جارٍ على حسب جريان الأحداث مع التذكير للاتعاظ

❀ ❀ ❀

٩٢ - لماذا يخبر ربنا عن الملائكة بالتذكير أحيانًا وبالتأنيث أحيانًا أخرى فمرّة يقول: ﴿فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ (الحجر: ٣٠) بالتذكير.

ومرة أخرى يقول: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ (آل عمران: ٣٩) بالتأنيث؟

والجواب: إن في القرآن خطوطًا تعبيرية في تذكير وتأنيث الملائكة، من ذلك:

١ - أن كل أمر يصدر إلى الملائكة يكون بصيغة المذكر، وذلك نحو قوله: ﴿اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ (البقرة: ٣٤)، وقوله: ﴿أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ﴾ (البقرة: ٣١)، فلم يأمرهم بصيغة المؤنث، فلم يقل مثلاً: (اسجدي) ونحوه، وذلك للتنصيص على أن الملائكة ليسوا إناثًا كما كان يعتقد أهل الجاهلية الذين حكى الله عنهم ذلك بقوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ (الزخرف: ١٩)، وغير ذلك من الآيات، فإن الضمير (الواو) خاص بالعقلاء الذكور، بخلاف ما لو أمر بالتأنيث نحو: (اسجدي) فإنه يكون للأنثى العاقلة وغيرها، ولجماعة غير العاقل ذكورًا وإناثًا، وذلك نحو: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ (سبأ: ١٠)، وقوله: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ (النحل: ٦٨) وهو من باب تصحيح المعتقد الباطل.

٢ - كل فعل يقع بعد ذكر الملائكة يكون بصيغة المذكر، وذلك نحو قوله: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ (النساء: ١٦٦)، ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ (الرعد: ٢٣)، ﴿وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ (الشورى: ٥)، ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ (الإسراء: ٩٥).

فلم يقل: (والملائكة تشهد)، ولا: (والملائكة تسبح بحمد ربها) ولا نحو ذلك.

٣ – كل وصف لهم بالاسم يكون بصورة المذكر، وذلك نحو قوله: ﴿ولا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ (النساء: ١٧٢)، ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (الحجر: ٢٩)، ﴿والملائكة باسطوا أيديهم﴾ (الأنعام: ٩٣) ﴿بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ (آل عمران: ١٢٥)، فلم يقل مرة نحو: (الملائكة المقربة)، أو (من الملائكة مسومة).

٤ – كل فعل عبادة يكون بلفظ التذكير؛ لأن ذلك أكمل وذلك نحو: ﴿فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ (الحجر: ٣٠)، ﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ (التحريم: ٦).

٥ – إذا كان ثمة أمر أشد من آخر كأن يكون موقفا عذاب أحدهما أشد من الآخر جيء بما هو أشد بالتذكير للدلالة على قوة الأمر وشدته، وذلك نحو قوله: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (الأنفال: ٥٠).

وقوله: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ (محمد: ٢٧).

فجاء بآية الأنفال بالتذكير ﴿يتوفَّى﴾، وبآية محمد بالتأنيث ﴿توفَّتهم﴾ وذلك أن آية الأنفال في سياق وقعة بدر.

ثم إنه قال: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ولم يقل مثل ذلك في آية محمد، كما أنها ليست في سياق حرب، فجاء بما هو أشد بصيغة المذكر.

٦ – في موقف البُشْرى يأتي بصيغة المؤنث، فلم تأت البشرى بصيغة التذكير، وذلك نحو: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ (٣٩)، ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٤٢).

وانظر كيف جاء في موقف الشدة بالتذكير في قوله: ﴿ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا (٢٥) الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا﴾ (الفرقان: ٢٥، ٢٦).

وفي موقف البشرى بالتأنيث، في قوله: ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾ (فصلت: ٣٠).

فقال في الأولى: ﴿ ونزل الملائكة﴾، وقال في آية البشرى: ﴿ تتنزل عليهم الملائكة﴾.

قد تقول: لكن الملائكة بشرت سيدنا إبراهيم، وكان الفعل الذي أسند إليهم بصيغة التذكير، قال تعالى: ﴿وبشروه بغلام عليم﴾ (الذاريات: ٢٨).

فنقول: إنه لم يرد ذكر للملائكة في هذه القصة، بل ورد ذكر الضيف، قال تعالى: ﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين﴾ (٢٤) فأسند القول إلى الضيف، ولم يسنده إلى لفظ الملائكة.

❀ ❀ ❀

٩٣ - *قال تعالى:* ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ﴾ (البقرة: ١٨٠). *بالفعل* ﴿حَضَرَ﴾.

وقال في موطن آخر: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ (الأنعام: ٦١). *بالفعل* ﴿جَاءَ﴾، *فما الفرق بينهما؟*

الجواب: إن الحضور نقيض المغيب والغيبة، وهو بمعنى الشهود، وهو يختلف عن المجيء، وإيضاح ذلك أنك تقول: (كنت حاضرًا إذ كلمه أبوك) فهذا ليس معناه أني كنت قادمًا حين كلمه، بل معناه: كنت موجودًا حين كلمه أبوك.

وتقول: (كنت حاضرًا مجلسهم) أي شاهدًا مجلسهم، لست غائبًا، وليس معناه كنت قادمًا إلى مجلسهم.

ونقول: (الله الحاضر في كل مكان) أي الموجود في كل مكان [بعلمه]، وليس معناه: (الله القادم في كل مكان) أو إلى كل مكان.

ولذا لا يصح أحيانًا وضع إحدى الكلمتين مكان الأخرى.

ففي قوله تعالى في السد الذي صنعه ذو القرنين مثلاً: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ (الكهف: ٩٨) لا يصح أن يقال للمعنى نفسه: (**فإذا حضر وعد ربي جعله دكّاء**) فإن الوعد وهو القيامة أو غيرها ليس موجودًا في ذلك الوقت بل سيأتي.

وفي قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ (هود: ٤٠) لا يصح أن يقال للمعنى نفسه: (حتى إذا حضر أمرنا) فكأنه كان موجودًا في مكان آخر ثم حضر، بل هو سيأتي في حينه، فإن الحضور يُقال لما هو موجود.

وأما المجيء فيحتمل الأمرين: المجيء بعد أن لم يكن موجودًا أصلاً أو كان موجودًا في مكان ثم قدم إلى مكان آخر.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ (الإسراء: ١٠٤).

ولا يصح أن يقال للمعنى نفسه: (فإذا حضر وعد الآخرة).

ونحـوه كثيـر، وذلك نحو قـوله: ﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ (المؤمنون: ٤٤)، وقوله: ﴿يَأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ (المائدة: ١٩)، فذلك ونحوه لا يصح إبدال: (حضر) فيه بـ(جاء).

ونعود إلى الاستـعمال القرآني لهذيـن الفعلين في نحو: ﴿حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ و: ﴿جَاءَ أَحَدَكُمُ﴾.

فالقرآن يستعمل حضور الموت مع الوصـايا والأحكام، أما مجيء الموت فيستعـمله لذكر ما يتعلق بالموت، أو ما يتعلق بالناس وأحوالـهم فيه، أو فيه وفيما بعده.

وإيضاح ذلك أنه قال في حضور الموت: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة: ١٣٣).

فلم يذكر شـيئًا يتعلق بالموت، وإنما هو ذكر لوصـية يعقـوب لبنيه عند حضور الوفاة.

وقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠) فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ (البقرة: ١٨٠، ١٨١).

وقال: ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ

تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله إن ارتبتم لا نشتري به ثمنًا ولو كان ذا قربى﴾ (المائدة: ١٠٦).

وهذه كما ترى في الوصايا وليست في ذكر ما يتعلق بالموت، فكأن الموت يكون شاهدًا مع مَن يشهد.

وقال: ﴿إنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ (النساء: ١٧، ١٨).

وهذا في حكم التوبة وأوانها، وأنها ليست عند حضور الموت، فليس في هذه الآيات شيء يتعلق بالموت، أو بحالة المتوفى فيه.

وقال في مجيء الموت: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ (الأنعام: ٦١، ٦٢).

فذكر أمرًا يتعلق بالموت وحالتهم فيه، وأنهم يردون إلى ربهم بعد ذلك.

وقال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ ...﴾ (المؤمنون: ٩٩) وما بعدها.

فذكر أنه إذا جاء أحدَهم الموتُ سأل ربه أن يُعيده لعله يعمل صالحًا، فقد ذكر شأن المتوفى من هؤلاء، ثم ذكر بعده أمورًا تتعلق بالقيامة.

وقال: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ (ق: ١٩ - ٢١).

فقد ذكر أمرًا يتعلق بالموت وهو أن الميت كان يهرب منه، ثم ذكر ما بعد الموت من أحوال القيامة.

فاتضح أن مجيء الموت يستعمله القرآن لما يتعلق بالموت، أو بحال الميت فيه، أو فيه وفيما بعده.

٩٤- قال تعالى في سليمان عليه السلام : ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ (سبأ: ١٤).

سؤال: ***يُقال إن المنسأة هي العصا ، فلماذا استعمل هنا المنسأة دون العصا ، في حين استعمل العصا مع موسى ، قال تعالى على لسان موسى : ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ (طه: ١٨)؟***

الجواب: المنسأة هي العصا العظيمة التي تكون مع الراعي يزجر بها البعير ليزداد سيرًا ، واشتقاقها من النسء ، وفعله : نسأ .

ومن معاني النسء التأخير في الوقت ، ومنه النسيئة وهو البيع بالتأخير ، و : (نسأ الله في أجله) أي أخّره وزاد فيه .

والنسء أيضًا زجر الناقة ليزداد سيرها ، ونسأها: دفعها في السير وساقها[١] .

واستعمالها مع سليمان هو المناسب ؛ لأنها كأنها نسأت في حكمه وأجله ، وكانت كأنها تزجر الجن وتسوقهم إلى العمل فهي أنسب من العصا ، فقد أفادت معنيي النسء : الزيادة في الأجل ، والزجر للسوق ، يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ .

فالعصا هي التي كانت تسوقهم إلى العمل لأنهم يظنون أن سليمان عليه السلام لا يزال حيًّا .

وأما استعمال العصا مع موسى فهو الأنسب فإن الغنم لا تحتاج إلى عصا عظيمة لسوقها .

---

(١) انظر لسان العرب (نسأ).

كما أنه استعـملها في مقام الرأفة بالحيوان والرحـمة به فقد قال: ﴿أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ أي: يخبط بهـا أوراق الشجر لتأكله الماشـية فلا يناسب استعمال المنسأة. فناسب كل تعبير مكانه

٩٥ - ما الفرق بين قوله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ (البقرة:٢٣٦) وقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ (البقرة:٢٢٩)؟

الجواب: إن قوله: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ جملة اسمية، وقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ جملة فعلية.

والجملة الاسمية أقوى وأثبت من الفعلية.

ثم إن (لا) تفيد توكيد النفي، وذلك أنها متضمنة معنى: (من) الاستغراقية، يقول النحاة: وهي نظير: (إنّ) في توكيد الإيجاب[1]، وهي آكد من (ليس).

ومعنى هذا أن قوله: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ آكد وأقوى وأثبت من قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾.

ويوضح ذلك الاستعمال القرآني للعبارتين فإنه يستعمل: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ فيما هو أهم من المواطن التي تستعمل فيها: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ فهو يستعملها في أمور العبادات، وفي تنظيم شؤون الأسرة، وفي الأمور المهمة على العموم.

وأما قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ فإنه يستعمله فيما هو دون ذلك من أمور الحياة، وما هو أقل أهمية على العموم.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ (البقرة: ١٥٨)، وهذا أمر يتعلق بالعبادة.

وقال: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ (البقرة: ٢٣٣)، وهذا يتعلق بتنظيم الأسرة وحقوق كل من الزوجين.

---

(١) انظر ابن الناظم (٧٤)، الهمع (١/ ١٤٤)، التصريح (١/ ٢٢٥)، جواهر الأدب (١٢٥).

وقال: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (البقرة: ٢٣٤).

وقال: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: ٢٣٦)، وهي كما ترى في شؤون تنظيم الأسرة، وفي الحقوق والواجبات.

وأما قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ فيستعمله فيما هو أقل شأنًا من أمور الحياة كما ذكرت.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ (المائدة: ٩٣).

وقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾ (النور: ٢٩).

وقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ (النور: ٦١).

وقال: ﴿إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ (البقرة: ٢٨٢).

فأنت ترى أنه استعملها فيما هو أقل أهمية مما قبلها.

قد تقول: ولكنه قال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ (البقرة: ١٩٨)، وهذا يتعلق بأمور العبادات.

فنقول: كلا، وإنما هو يتعلق بالتجارة في موسم الحج، فإنه قال إنه لا مانع من التجارة وابتغاء الرزق في الحج

ويوضح ذلك استعمال كل من التعبيرين في آيتين متتابعتين، وهما قوله: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (النساء: ١٠١).

وقوله في الآية بعدها: ﴿وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ (النساء: ١٠٢).

فقال في الآية الأولى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾، وقال بعدها: ﴿لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾.

ذلك أن الآية الأولى في السير في الأرض للتجارة أو غيرها، فقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾.

أما الآية الثانية ففي الجهاد، يدل على ذلك قوله: ﴿أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾، فقال: ﴿لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ فدلّ ذلك على ما ذكرناه والله أعلم.

❀ ❀ ❀

٩٦- ما الفرق بين الكَره والكُره؟

الجواب: قيل: هما واحد، وقيل: الكُره بالضم اسم مفعول أي مكروه كالخُبز بمعنى المخبوز، والكَره بالفتح المصدر(١).

وقيل: «الكَره -بفتح الكاف- المشقة التي تنال الإنسان من خارج فيما يُحمل عليه بإكراه.

والكُره -بضم الكاف- ما يناله من ذاته وهو يعافه»(٢).

وجاء في «البحر المحيط»: «وقيل: الكُره بالضم ما كرهه الإنسان، والكَره بالفتح ما أُكره عليه»(٣).

وعلى هذا المعنى جرى استعمال القرآن.

فإنه يستعمل الكَره -بفتح الكاف- لما ينال الإنسان من الخارج من مشقة، ولذا يقابله بالطوع.

قال تعالى: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ (آل عمران: ٨٣).

وقال: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ (التوبة: ٥٣).

وقال: ﴿وَلِلَّه يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ (الرعد: ١٥).

وقال: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ (فصلت: ١١).

ولم يقابل الطوع بالكُره بضم الكاف.

وقال: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾ (النساء: ١٩)، أي: بالإكراه.

---

(١) انظر البحر المحيط (٢/ ٣٦٢، ٣٧٩).

(٢) المفردات في غريب القرآن (كره).

(٣) البحر المحيط (٢/ ٣٦٢).

وكل ذلك يدل على ما يناله من المشاقّ من الخارج، وما يُكره عليه.

في حين قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾ (البقرة: ٢١٩)، أي: إن كره القتال أمر يعود إلى الطبع، فإن القتال مكروه للإنسان.

وقال: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ (الأحقاف: ١٥).

والحمل والوضع مشقتان تنالان المرأة وهما مكروهان لها؛ لما فيهما من آلام الحمل والوضع والمشقة فيهما.

❀ ❀ ❀

٩٧ - **سؤال**: *ما الفرق بين النبأ والخبر؟*

الجـواب: النبأ: أهم من الخبـر وأعظم، جاء في «المفـردات» للراغب: «النبأ: خبر ذو فائدة عظيمة، يحصل به علم، أو غلبة ظن»(١).

وكذلـك استعـملها الـقرآن، قال تعـالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۞ عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ﴾ (النبأ: ١، ٢).

وقال: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ۞ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ (ص: ٦٧،٦٨).

ولم يستعمل (الخبر) بصورة الإفراد إلا في قصـة موسى في قوله: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ (النمل: ٧)، وقوله: ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ (القصص: ٢٩).

ولا شك أن الخبر الذي بغاه موسى لا يرقى إلى أهمية النبأ العظيم.

ومن الملاحظ أن القرآن لم يستعمـل لأخبار الماضين من الرسل أو غيرهم إلا الأنباء.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الأنعام: ٣٤).

وقال: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ (إبراهيم: ٩).

وقال: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ (ص: ٨٨).

وقال: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ (هود: ١٢٠).

وقال: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ (القمر: ٤).

قد تقول: ولكنه استعمل الأخبار في أمـر يدل على عظيم أهميتها، فقد قال ربنا: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ (محمد: ٣١).

---

(١) المفردات (نبأ).

فنقول: إن هذا يدل على عظيم البلاء، فإنه إذا بلا الأخبار مع أنها أيسر من الأنباء فهو سيبلو الأنباء من باب أولى، فإنه إذا بلا اليسير فإنه سيبلو العظيم من باب أولى، ولو قال: (ونبلو أنباءكم) لم يدل على أنه يبلو الأخبار، بل هو سيتركها لأنها أهون، فلما ذكر أنه يبلو الهيّن دل على أنه يبلو العظيم ولا شك.

وقد تقول: ولكنه ذكر الأخبار في الأمور العظيمة، وهي الآخرة، فقد قال:

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ (الزلزلة: ١-٥).

فنقول: هذا يدل على عظم ما سيكون في اليوم الآخر، فهذه هي الأخبار، فما بالك بالأنباء؟!

فإنه ستحدث أمور أكبر وأعظم من الزلزلة، من مثل قوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ (الانفطار: ١-٣).

ومن مثل قوله: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا﴾ (الواقعة: ٥، ٦).

وقوله: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ (الرحمن: ٣٧)، وغير ذلك من الأمور العظيمة.

وهذا تحذير عظيم، فإذا كانت هذه هي الأخبار فما بالك بالأنباء؟

❀ ❀ ❀

٩٨ - سؤال: *العدد في القرآن الكريم: هل يُراد به حقيقة المذكور أو يُراد به التكثير؟*

الجواب: إن العدد مذكور في القرآن في أكثر من سياق ومقام:

١ - فقد ذُكر في الأحكام، وذلك نحو قوله: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ (البقرة: ١٩٦).

وقوله: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾ (المائدة: ٨٩)، وهذا يُراد به العدد المذكور حتمًا.

٢ - وقد يُذكر في الإخبار عن أمور أو حوادث مختلفة، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ (الحاقة: ٧).

وقوله: ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ (البقرة: ٢٥٩).

وقوله: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا﴾ (الأعراف: ١٥٥)، وهذه الأعداد يُراد بها حقيقة ما ذُكر أيضًا.

٣ - هناك أعداد اختلفوا فيها، أتُراد حقيقتها أم يُراد بها التكثير، وذلك نحو قوله: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ (التوبة: ٨٠).

والذي نرجحه أنه يُراد به حقيقتها، والدليل على ذلك ما جاء في الخبر، أن الرسول قال: «سمعت ربي رخص لي فلأستغفرن لهم سبعين وسبعين وسبعين، فلعل الله يغفر لهم». حتى نزل قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ (المنافقون: ٦)[1].

❀ ❀ ❀

(١) انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٣٧٦).

٩٩ - **سؤال**: *لماذا لم تتكرر قصة يوسف في القرآن كما تكررت قصص الأنبياء الآخرين؟*

الجواب: نقول أولاً: ليست قصة يوسف هي الوحيدة التي لم تتكرر في القرآن، وإنما هناك قصص أخرى لم تتكرر منها قصة سليمان والهدهد، وقصة ذي القرنين، وقصة موسى والخضر، وقصة أصحاب الكهف وغيرها.

أما الجواب عن قصة يوسف، فإن هذه القصة ليس فيها تعليمات ولا أحكام ولا دعوة قوم من الأقوام إلى ما دعا إليه الأنبياء الآخرون، وليس ليوسف ولا لأبيه مع قومه شأن من شؤون الدعوة.

وبذا هي تختلف عن رسالات الأنبياء الآخرين من دعوة أقوامهم إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام والنهي عن الشرك والعقائد الباطلة، ونهيهم عن أعمال كانوا يرتكبونها من مثل التطفيف بالموازين والكيل، وإتيان الذكران، وغيرها من الفواحش، ودعوتهم إلى صالح العمل، وهي أُسس عامة لجميع الأقوام والمجتمعات على مر الزمان.

أما قصة يوسف على ما فيها من عبر فهي تحكي قصة شأن عائلي، وليست رسالة إلى مجتمع أو قوم من الأقوام.

وأما ما قاله يوسف إلى السجينين معه: ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (يوسف: ٣٩)، فهذا جاء عرضًا استغله يوسف للدعوة إلى الله، وهو بصدد تعبير الرؤيا، ولم يذكر القرآن لنا أن يوسف كان مُكلفًا بتبليغ رسالة ما إلى قومه أو إلى غيرهم.

وحتى لو كان يوسف رسولاً من رسل الله كما يفهم من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ (غافر: ٣٤)، لكنه لم تُذكر هذه الرسالة ولا بما أُرسل.

فاختلف الأمر عن بقية قصص الأنبياء الذين تكرر الحديث عنهم.

١٠٠ - سؤال: *نسمع أحيانًا داعيًا يدعو لصاحبه بقوله: (فتح الله عليك)، ويقال: إن هذا الدعاء غير مناسب* ***لأن (فتح الله عليك) لا يقال في*** *الخير، وإنما يقال في الشر فقط، والصواب أن يقال: (فتح الله لك)* ***فما حقيقة*** *الأمر؟*

الجواب: إن الاعتراض غير وارد، وإنما يصح أن يقال: (فتح الله عليك) في الخير والشر بحسب ما يُبين الداعي أو المخبر أو ينويه.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (الأعراف: ٩٦).

وقال على لسان بعض أهل الكتاب: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ٧٦).

وهذا في الخير كما هو واضح.

وقد يُستعمل في العقوبات والشر، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ (المؤمنون: ٧٧).

❀ ❀ ❀

مراجع الكتاب

- الأمالي الشجرية لأبي السعادات هبة الله بن الشجري، ط١، مطبعة دار المعارف العثمانية بحيدر آباد- الدكن (١٣٤٩هـ).

- أنوار التنزيل للقاضي البيضاوي - المطبعة العثمانية (١٣٠٥هـ).

- البحر المحيط لأبي حيان، ط١، سنة (١٣٢٨هـ)، مطبعة السعادة بمصر.

- تاج العروس شرح القاموس لمحمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي- منشورات مكتبة الحياة- بيروت، تصوير الطبعة الأولى بالمطبعة الخيرية بمصر سنة (١٣٠٦هـ).

- تفسير ابن كثير طُبع بدار إحياء الكتب العربية- عيسى البابي الحلبي وشركاه.

- تفسير أبي السعود.

- التفسير الكبير لفخر الدين الرازي - دار إحياء التراث العربي- بيروت- ط٤، (١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م).

- جواهر الأدب في معرفة كلام العرب للإمام علاء الدين بن علي بن محمد الأربلي- المطبعة الحيدرية- النجف (١٣٨٩هـ / ١٩٧٠م).

- درة التنزيل وغُرة التأويل للخطيب الإسكافي- منشورات دار الآفاق الجديدة- بيروت، ط١، (١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م).

- روح المعاني في تفسير القرآن الكريم لشهاب الدين السيد محمد الألوسي- إدارة الطباعة المنيرية دار إحياء التراث العربي.

- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك- دار إحياء الكتب العربية.

- شـرح ألفـيـة ابن مـالك لابن الناظم- المطبـعـة العلـوية في النجف (١٣٤٢هـ).

- شرح التصـريح على التوضيح لخالد بن عبـد الله الأزهري- دار إحياء الكتب العربية.

- شرح رضي الدين الإستراباذي على الكافية لابن الحاجب.

- فتح القـدير لمحمد بن علي بن محـمد بن عبد الله الشـوكاني، ط١- مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر سنة (١٣٤٩هـ).

- كتـاب الأصول لابن السراج - تحـقيق الدكتـور عبد الحـسين الفتلي- مطبعة النعمان، النجف الأشرف.

- كتاب سيبويه مصور على طبعة بولاق- نشر مكتبة المثنى ببغداد.

- الكشاف لجار الله الزمـخشري- مطبعة مـصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر سنة ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م.

- لسان العرب لابن منظور - مصور على طبعة بولاق.

- المصباح المنير لأحمد بن محمد الفيومي - المكتبة العلمية -بيروت.

- معـاني الأبنية في العربـية للدكتـور فاضل صالح السـامرائي - ط١، (١٤٠١هـ / ١٩٨١م) - الشركة المتحدة للتوزيع- بيروت.

- معـاني النحو للدكتور فـاضل صالح السامـرائي - مطابع دار الحكمة للطباعة والنشر- الموصل ط١، (١٩٩١م).

- مغني اللبيب عن كـتب الأعاريب لابن هشام الأنصاري تحقيـق محمد محيي الدين عبد الحميد.

- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني- طهران.

- ملاك التأويل لأبي جعفر أحمد بن الزبير الغرناطي تحقيق الدكتور محمود كامل أحمد - دار النهضة العربية للطباعة والنشر- بيروت (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م).

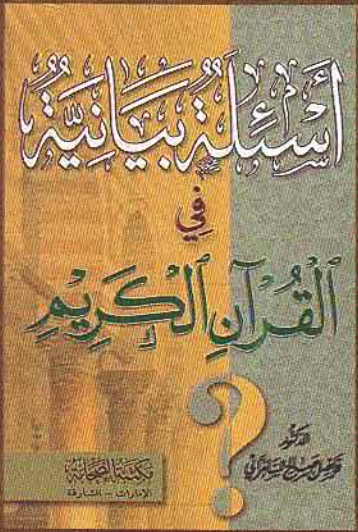
- النشر في القراءات العشر لابن الجزري - مطبعة مصطفى محمد بمصر.

- همع الهوامع للسيوطي ط١ سنة (١٣٢٧هـ)- مطبعة السعادة بمصر

❀ ❀ ❀

الفهرس

أسئلة بيانية



مكتبة الصحابة
الإمارات - الشارقة